المعادلة الحرجة
في
حَيَاة الأمّة الإسلاميّة

محفوظة
جميع الحقوق

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

المعادلة الحرجة
في
حَيَاة الأمّة الإسلاميّة

الدكتور
محمّد عبدُه يَماني

بسم الله الرحمن الرحيم

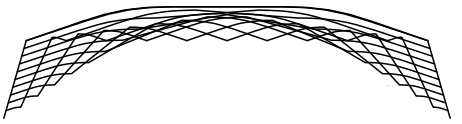

الإهداء

إلى من أخلصتْ لي فخلصْتُ للبحث،
وتفرَّغَتْ لراحتي ففرغْتُ للعمل،
فكان لها في كل ما أنتجْتُ فضل إسهامٍ
وكريم معونةٍ. إلى زوجتي الوفيّة وإلى الأبناء
الأعزاء الذين أرجو لهم أسْمَى الأمل بما أقدم من الأسوةِ
في صالحِ العمل ..

.. أهْدِي هُدَى هذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

حمداً لله، وصلاة وسلاماً على رسوله الأمين... **وبعد:**

فمنذ حين كانت تنازعني فكرة الكتابة عن المقارنة بين الأمة الإسلامية في مثاليتها، ومكانتها التي جعلها الله فيها ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وحالها في واقعها ومشكلاتها اليوم، مع الدعوة إلى التعرف على الأسباب العميقة لهذه المحنة، وإلقاء الضوء على علاجها بوصف الداء والدواء.. حتى تلقيت دعوة للمشاركة في الملتقى الإسلامي السابع بالجزائر في عام (١٣٩٣هـ)، فألقيت هناك محاضرة بعنوان: «المعادلة الحرجة في حياة الأمة الإسلامية اليوم» وكانت تدور حول هذه الفكرة التي طالما رغبت في الإفصاح عنها.

ثم عدت إلى هذا الموضوع ألقي عليه نظرات من جوانبه المختلفة، ورأيت من الخير أن أُعجِّل بنشره إلى الشباب، الذين هم هدف الغزو الفكري الذي يوجّه إلى أمتنا المسلمة اليوم.. ما يحتم على كل قادر على مواجهته أن يقوم بما يستطيع من جهد في هذا الجهاد العظيم؛ لرد هذا الغزو على أعقابه، وللحفاظ على أصالة هذه الأمة، التي شهد لها تاريخها الممتد بأنها قد قاومت المحن، وصابرت على مرّ الزمن، وما تزال بحمد الله مستمسكة بدينها، مبصرة لطريقها، شاهدة بذلك على صدق قوله ﷺ:

«لا تزال طائفة من أُمتي ظاهرة على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله».

وبعد...

فإني إذ أقدم هذه الرسالة الوجيزة للشباب المسلم في كل أقطار الإسلام لأرجو أن تكون باعثاً لهم على النظر بعمق إلى حقيقة المعركة الدائرة بين الإسلام وخصومه ـ وما أكثرهم ـ على اختلاف ألوانهم، ونزعاتهم، وأغراضهم. ويوم يحمل الشباب المسلم رسالة الإسلام، ويلتف حول رايته، ويستمسك بعروته الوثقى.. فإن أعداء الإسلام لن يجدوا لهم طريقاً.. ولن ينجح لهم مسعى في الكيد للإسلام.. ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله.

ومن الله سبحانه الهداية والتوفيق...

د. محمد عبده يماني
مدير جامعة الملك عبد العزيز

المعادلة الحرجة في حياة الأمة الإسلامية

وأعني بذلك منطقة التوازن التي يجب أن تعيشها الأمة الإسلامية بين المثل القيمة الكريمة لهذا الدين الإسلامي، وبين الواقع المرّ للمسلمين اليوم، بين الدين الذي جاء ليجعل هذه الأمة أُمة وسطاً، وبين الواقع الذي أخذ بهذا الأمة إلى منحدرات الجهل، والضياع، والتخلف الذي تعيشه. وسبحان من خاطب هذه الأمة بقوله ﷻ:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فوضع الأمة الإسلامية كأُمة وسط بين المسيحية المفرطة واليهودية المفرطة جاء ليجعل من هذه الأمة أُمة مثالية.

ولذلك سوف أتحدث عن مفهوم هذه الأمة الكريمة من ناحية، وعن مفهوم الإسلام، لإيضاح واقع الأمة الإسلامية، وكيف أن النهوض بها يتطلب العودة إلى هذا الوسط الذي اختاره لنا الإسلام؛ بمعنى أنني سأتدرج للحديث عن واقع الأمة من ناحية، وعن العوامل التي أدّت بها إلى ما صارت إليه من ناحية أخرى، ثم سأنتقل بعد ذلك إلى ذكر العوامل والخطوات؛ التي أعتقد أنه يجب أن نبدأ بها للأخذ بيد هذه الأمة نحو مستوى أفضل إن شاء الله.

أولاً: واقع الأمة الإسلامية:

تعيش الأمة الإسلامية اليوم فترة مهمة جداً، تتميز بوعي ثقافي، وبما يمكن أن نسميه فترة الصحو الإسلامي (اليقظة)؛ أي: أننا بدأنا نشعر

بواقعنا، بدأنا نشعر أننا أُمة متخلفة، وهذا هو بداية الوعي، فقد بدأنا نشخص الداء، وانتقلنا من فترة التخلف المركب إلى التخلف البسيط، الذي يسهل علاجه؛ لأن التخلف المركب لأمة ما هو أن تجهل أنها متخلفة. أما أن تكون أُمة متخلفة ثم تدرك واقعها، فيكون ذلك من مسببات إيجاد العلاج اللازم، ومن مسببات يقظة الفكر، وشحذه في سبيل الوصول بهذا الأمة إلى علاج مواطن الضعف، ومواطن التخلف، ومواطن التقهقر فيها.

والحمد لله فإننا نعيش فترة الصحو هذه، وهذا يبشر بخير كثير.

والحقيقة أننا بحثنا في واقعنا عن أسباب هذا التخلف، فانتهى بنا البحث إلى أن الأمر ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: تخلف بسبب أمور فينا، وهذا هو الأخطر.

والقسم الثاني: تخلف بسبب أمور تقع علينا.

أما عن القسم الأول، وهو الأمور التي تقع فينا:

أي: أن التخلف كان بسبب أمور من واقع الأمة الإسلامية نفسها، ومن أبرز المشاكل التي وقعت فينا هي:

فقدان الحيوية في الأمة، والركود الفكري والعلمي الذي أصابنا، والإقبال على الدنيا إقبالاً دون ضوابط، والنظرة الخاطئة لمفهوم العبادة في الإسلام، وقصرها على التعبد، فهدمنا بذلك الأسس الأساسية التي ارتكز عليها الإسلام، وجاء بها نظاماً كاملاً للحياة.

وانقسمت الأمة إلى:

فريق مفرط كل التفريط، وفريق متزمت كل التزمت.

وضاعت تلك الميزة للأمة الوسط التي تجمع في اعتدال بين الدنيا بماديتها، فتسعى وتجد في الحياة كأنها تعيش أبداً لتعمر وتبني، وتقبل على الآخرة، وتسعى لها سعيها، وكأنها ستموت غداً، فتحقق بذلك سعادة الدنيا والآخرة.

وبدل أن يستمر البحث العلمي، واليقظة الإسلامية في الاتجاه العلمي الصحيح، انتقلنا إلى الحديث عن الأشخاص والاختلافات التي وقعت فيهم ووقعت بينهم، مع أن الإسلام أمرنا بالسكوت عما شجر بينهم، ثم انتقلنا من الحديث عن الأمهات إلى المتشابهات، ومن الأصول إلى الفروع، ومن المتون إلى الحواشي والشروح، فبدّدنا الطاقات، وانقطعنا بذلك عن روح البحث العلمي الأصيل، وبالتالي تفرّقنا إلى شيع ومذاهب مختلفة، وأصبحت كل فرقة تنظر إلى الفرقة الأخرى نظرة مستقلة كل الاستقلال، وانتشرت فينا مذاهب لم تكن من الإسلام في شيء، فاستوجب الأمر علاج هذه الأمراض التي انتشرت في المجتمع، وصدّعته، وطمست المفهوم الحقيقي للإسلام، والقدوة الحسنة في نفوس الشباب المسلم الذي سعينا إلى بنائه بناء إسلامياً صحيحاً، فضاع بين الإفراط والتفريط، والتزمت والجمود، وبين الانحراف والانحلال، وبالتالي فقدت الأمة الوسط أهم مقوماتها، وأساس قوتها.

وأما عن القسم الثاني: الأمور التي تقع علينا من الغير:

فلم تنقطع جيوش الغزو العسكري والفكري للإسلام منذ أن بزغ نوره؛ لاعتقادهم أن حياتهم لا تقوم إلا على أنقاض الإسلام، فقد علمتهم الوقائع التاريخية بينهم وبين الأمة الإسلامية ما يثير تخوفهم من عودة الإسلام إلى سابق قوته حين اكتسح حضاراتهم، وأقام ثقافته الربّانية الرائعة على أنقاض ثقافتهم الوضعية الزائفة، وحرر شعوبهم من ذلّ العبودية للعباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل السماء، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها. فتحولت هذه الشعوب من الوقوف في وجوه الجيوش الإسلامية الفاتحة إلى الوقوف إلى جانبها، ومن مناصرة حكامها إلى معاداتهم. فلا عجب إذاً والأمر كذلك أن يجيش طواغيت الأرض الجيوش تلو الجيوش للقضاء على الأمة الإسلامية؛ لأن في قوتها يكمن موتهم، وذهاب ريحهم، ومن هنا فلهم العذر في التفكير، والتخطيط لإفناء قوة المسلمين.

هنا يتضح لنا تاريخ العداء الطويل بين الإسلام وخصومه، ذلك الطريق الذي اتخذ أشكالاً وألواناً متعددة، ولم يهدف إلا إلى القضاء على الإسلام والمسلمين!!

ولكننا غير معذورين؛ لأنه لو كانت عندنا المناعة الإسلامية الكافية، واعتصمنا بحبل الله المتين، ومنهاجه القويم؛ لما استطاعوا أن ينالوا منّا؛ لأن المؤثر شيء.. والقابل للتأثير شيء آخر.. فما استطاعوا التأثير فينا لقوتهم، بل لقابليتنا للتأثر.

ومرد ذلك إلى:

١ ـ انعدام مناعتنا؛ بسبب خروجنا من حصن الإسلام الحصين.

٢ ـ رضانا بهواننا، وتسرب الوهن إلى قلوبنا.

فإن من حقائق الاجتماع الإنساني أن تغيير أحوال الأمم، والنهوض بها، لا يتم إلا بعمل منظم له خطة كاملة، تأخذ في الاعتبار واقع الحياة، وإمكانية التغيير، وتضع في حسابها ما يمكن أن يقف في وجه الإصلاح من عقبات، وما يعترضه من مكائد ومؤامرات. ولا يمكن التغيير والإصلاح بالأماني والأحلام، ولا بالخطب والشعارات، أو بالحماس والانفعالات، فتلك جميعاً أسباب لا تؤدي إلى نجاح، ولا تصل بأصحابها إلى فلاح.

تلك حقيقة أوضحها القرآن الكريم في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

كما أكّدها الرسول ﷺ في جهاده لنشر الدعوة الإسلامية، وفي تنظيمه للمجتمع الإسلامي في المدينة، حتى استطاع أن ينتقل بالعرب من حال إلى حال، وأن يضع الأساس المتين لبناء المدينة التي تصلح للناس في كل مكان وزمان.

وإذا أردنا بعثاً جديداً لأمتنا فلنتبع الخطوات الأساسية نفسها؛ التي

رسمها رب العالمين لرسوله الأمين، فصنع بها خير أمة أخرجت للناس، (فإنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها).

إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه لم يكتف بإعلان الدعوة، بل جاهد في سبيل الله حق جهاد، ولم يقف عند حد التعليم والإرشاد، بل حرص على التنفيذ والتنظيم، وهكذا غيّر حياة العرب، وانتقل بها من حال إلى حال.

والمتأمل لسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، يرى فيها دروساً عظيمة، ويتعلم منها كيف تبنى المجتمعات بناء جديداً على مبادئ جديدة، وكيف يتم التغيير وفق المثل والغايات بالتخطيط، والتنظيم، والعناية بالحقائق، والابتعاد عن المظاهر والأشكال.

ونحن اليوم نعيش في واقع أمتنا الإسلامية، وندرك جميعاً ما يعتريها من مرض ووهن.

نرى فيها تفككاً وانفصاماً، كما نرى فيها ضعفاً ووهناً، ونرى فيها شقاء واضطراباً، وحيرة واغتراباً!!

فأي مرض هذا الذي أصاب هذه الأمة حتى أورثها هذه المظاهر المتعددة؛ التي قد يعد كل منها مرضاً خاصاً، ولكنها في الحقيقة تنبع من داء واحد، وتصدر عن علة واحدة؟!

إن فقدان الأصالة، والتخلي عن المسؤولية التي حمّلها الله هذه الأمة، ومن ثم هانت هذه الأمة على نفسها قبل أن تهون على غيرها، ومن هان على نفسه فهو على غيره أهون!

ولا سبيل إلى القوة دون تحمل مسؤولية الله التي وضحها في كتابه الكريم بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وقوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ [الحج: ٧٨].

ولم يكن هذا الاجتباء وهذه القوامة محاباة لهذه الأمة، أو تفضيلاً بغير استحقاق، ولكن الرسالة التي حملتها، والعبء الذي اضطلعت به هو الذي أهّلها لهذه المكانة، ورفعها إلى هذه الدرجة.

إن الداء الخطير الذي تعاني منه الأمة الإسلامية اليوم أنها تعيش دون رسالة، وأنها نسيت حقيقة كيانها، وسرّ وجودها، وأساس تفضيلها واصطفائها، وأنها لذلك قد أصبحت دون مستوى الرسالة التي ناطها الله بها، وكلفها القيام بأمانتها، فأصبحت أضعف من أن تحملها، وأعجز من أن تبثّ ضياءها في العالمين.

بل إن الأخطر من ذلك أن الكثيرين من أبناء هذه الأمة قد زاغت منهم الأبصار، ففتنهم بريق الحضارة المادية عن دينهم، ورسالتهم، وأعماهم عن كنوز أسلافهم، فراحوا يتطلعون إلى ما في أيدي غيرهم من فكر بشري قاصر، أو خبيث مضلل. مع أن الحق سبحانه يناديهم بقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

ومن هنا فإن أول خطوة نحو إقالة الأمة الإسلامية من عثرتها أن تعرف حقيقتها، وأن تدرك ذاتها، وأن تبصر طريقها، وأن تراجع، بوعي تام، تاريخها؛ لتعرف لماذا سادت بالأمس فسعدت، وأسعدت البشرية، ولماذا هانت اليوم فشقيت، وأشقت البشرية.

ومن هنا فعليها أن تبدأ بنفسها قبل أن تنظر إلى غيرها، وتنفذ في واقعها ما ترجوه لغيرها، وأمامها قول الله ﷻ: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وإذا أردت الدليل على صدق هذه الحقيقة فانظر إلى أوضاع المجتمع الإسلامي في عهود قيادته للبشرية، وزعامته للإنسانية، فهل تراه خالف في نفسه شيئاً مما دعا إليه غيره؟

وهل تراه أعلن مبادئ، أو رفع شعارات، وهو لا يستطيع تطبيقها، والالتزام بها؟

كلا!.. إن هذا المجتمع في عصوره الراشدة كان لا يرجو للإنسانية إلا أن تستضيء بما استضاء به من قبل، وأن تنعم بما نعم به في ظل الإسلام.

ولهذا كانت استجابة الشعوب للإسلام استجابة سريعة؛ لأنها رأت مبادئه تعيش في واقع الحياة ممثلة في رجاله، ودعاته، وأتباعه، فدخلت فيه عن طواعيه، وآمنت به عن اقتناع.

فإذا عرفت الأمة الإسلامية ـ ممثلة في قادتها، وعلمائها، وشبابها ـ ألا نجاة لها إلا بالإسلام ولا مكانة لها إلا بالاستمساك به، ولا طريق لها غير طريقه، فلترجع إلى أسلوبها الأول الذي سنّه لها رسول الله ﷺ، وهو أسلوب التنظيم، وأسلوب الواقع العملي، وأن تتخلى عن أسلوب الكلام، وعن خطة العواطف والانفعالات[1].

وأول الطريق هو إعداد جيل جديد، يشرب قلبه حب الإسلام، وينشأ على معرفته، والفقه فيه.

إنها نكبة أصابت المسلمين، ولا تزال، أن جيلهم الجديد لا ينشأ على ثقافة الإسلام، ولا يدرك تصوره الحق للحياة بكل جوانبها، إلا في بيئات قليلة من بلاد الإسلام.

وبعد: فهل تجد تصويراً لما يعانيه المسلمون اليوم من أدوائهم، وتحليلاً لما أصابهم من داء، أصدق من قول الرسول ﷺ: «**يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها**، قالوا: أو من قلة نحن يا رسول الله؟ قال: **والذي نفسي بيده، إنكم يومئذٍ لكثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم،**

(١) ندوة المحاضرات عام ١٣٩١هـ، ص٥٧.

وليجعلن في قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: **حب الدنيا، وكراهية الموت**».

صدق رسول الله، فقد أحببنا الدنيا فأضعنا الدنيا والآخرة، ولقد كرهنا الجهاد، ففقدنا العزة والقوة.

وما أحوجنا اليوم إلى العودة إلى كتاب ربنا، وسُنَّة رسولنا؛ لمواجهة الحياة. وإلى عزم جديد ينفض عنا غبار الذل والهوان، وإلى تربية عملية تنشئ المسلم، والأسرة، والمجتمع كما أراده الله. وإلى نهضة إسلامية شاملة، تكون يقظة بعد سبات، وبعثاً بعد موت.

وإن على كل منا أن يسهم في هذه النهضة بعمل، وأن يبدأ بنفسه قبل أن يدعو غيره ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وهذا الحديث يسوقنا إلى التعرف على الإسلام، ومنهاجه الذي يجمع في اعتدال واتزان بين المادية والروحية، دون إفراط ولا تفريط.

فالإسلام: هو الانقياد، والإذعان، والخضوع، حيث يكون من أسلم له الإنسان هو المتصرف في تنظيم كل حركة حياته، بحيث لا يصدر فعله إلا عن أوامر من أسلم له ذلك العبد.

وما دام الإسلام بهذا المعنى، فلا يسلم الإنسان قياده إلا لمن هو أعلى منه قوة، وقدرة، وحكمة، وعلماً؛ ولهذا لا يوجد إسلام بمعناه الواسع إلا لله ﷻ.

والإسلام بهذا المعنى هو مهمة كل الرسل، قال نوح عليه السلام: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١] ودعا إبراهيم له ولابنه إسماعيل فقال: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]. وقال الحواريون لعيسى: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

لماذا لا يسمي الإسلام بالمحمدية؟

ما دام الإسلام هو الانقياد لله، فالله هو واضع منهجه، وليس لشخصية الرسول أي دخل في هذا المنهج؛ لذلك طلب منا الإسلام أن نكون ربانيين؛ أي: منسوبين للرب في منهج حياتنا، فليس للرسول في المنهج إلا البلاغ من الله، وإلا البيان بوحي من الله لكلام الله، فديننا يجب ألا ينسب لبشر مطلقاً.

لماذا جاءت النصرانية بعد اليهودية؟

جاءت النصرانية بعد اليهودية؛ لأن اليهود حرّفوا منهج الله لهم بما تصرفوا في التوراة نسياناً، وكتماناً، وتحريفاً، وزيادة، فلم تعد التوراة بواقعها الموجود ممثلة لما أنزله الله؛ ولهذا لا نجد في التوراة ما يتعلق بالقيم، ولا بالروحانيات، ولا باليوم الآخر، فكان ولا بد أن تردهم السماء إلى جادة الحق، فجاء عيسى عليه السلام برسالة من الله وفيها عنصر الروحانية، والقيم الإنسانية؛ ولذلك لا نجد في الإنجيل مسألة تتعلق بنظام الحياة، وتقنينات المجتمع، وكلها إيقاظات للناحية الدينية في الإنسان، والوجدانات التي تدفعه للتوجه إلى حبّ الله، وحبّ المجتمع.

لا شك في أن الله سبحانه وتعالى الذي أرسل موسى وعيسى عليهما السلام والنبيين من بعدهم وقبلهم، يعلم أن أتباعهم سوف ينحرفون عن النهج، ويحرفوه، فلماذا لم يحفظ النهج السابق والكتب السابقة كما حفظ القرآن؟

لأن رسالة موسى، ورسالة عيسى، ورسالة كل الرسل السابقين رسالات موقوتة، محدودة الزمان ومحدودة المكان، أما رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فكانت عامة لكل زمان ومكان، ولأن الإسلام دين عام خالد، ولا رسالة بعده لتصحح شيئاً فيه؛ لهذا لم يوكل حفظه للبشر، فتكفّل الله بحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وأيضاً: فإن القرآن كلام الله، وهو صفته، فلا دخل للإنسان في حفظ هذه الصفة، فهي باقية ببقاء الحق الباقي عز وجل.

وهكذا نرى كيف أن الإسلام قد جاء، وفي العالم يهودية انحرفت عن منهج الله إلى عالم المادة الصرفة، حتى غالوا في المادية غلوّاً جعلهم يطلبون أن يروا الله جهرة.. ومسيحية قابلت ذلك بروحانية صرفة لترد هذا الجموح المادي.. حتى يمتزج العنصران.

ولكن النزاع بين أتباع الديانتين جعل كل فئة تستقل، واحتدم النزاع إلى حدّ جعل كل دين يستقل بمنطقه.. وأدى إلى انفصال اليهودية عن المسيحية.. فاختلّت المعادلة.. وجاء الإسلام ليصحح للإنسانية المعادلة الضرورية.. مادية بقيم، وروحانية بحركة.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

ولذلك نرى القرآن يعرض المؤمنين بالإسلام عرضاً يجمع الاتجاهين. وقد علم سبحانه أن اليهود سيصرون على ماديتهم، وأن المسيحيين سينعزلون بروحانيتهم، فبين الله في كتابه العزيز ما ضربه مثلاً لليهود في التوراة، مبيناً في هذا المثل الكمال الإسلامي، فقال سبحانه:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ﴾ [الفتح: ٢٩].

فكأنه سبحانه ضرب المثل لأمة محمد في التوراة ما يجعلهم متمسكين بالمنهج الروحي الذي فقدته اليهودية، وهو المعنى التعبّدي في كونهم ركعاً سجداً، سيماهم في وجوهم من أثر السجود.

وحين قال سبحانه: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾، جعل المثل للمسلمين أنهم منطلقون في مادية الحياة بقيمها الروحية السابقة؛ لأن ذلك العنصر هو الذي تفقده المسيحية الآخذة من الإنجيل، فقال سبحانه:

﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

إذاً، فالوسطية في الإسلام هي التي تجمع طرفي المعادلة دون إفراط ولا تفريط، وبذلك يكون الإسلام هو التشريع الإلهي الذي غطّى متطلبات الملكات النفسية، ولم يشرع لملكة واحدة على حساب ملكات أخرى، وبذلك يكون الإنسان سويّ التركيب، منسّق الطاقات، غير متدافع الميول.

وينبغي أن لا يغيب عن البال أن منهج اليهودية، الذي انحاز بالدين إلى عنصر واحد من عناصر الحياة، ليس هو المنهج الإلهي لهذه اليهودية؛ لأنه لو ظل المنهج الإلهي منهجها لما احتاجت إلى أن تعدِّلها رسالة عيسى عليه السلام، وكذلك المسيحية لم تبق كما أنزلها الله، بل طرأ على الديانتين تحريف، وتبديل، وكتمان، فكان ولا بدّ أن تصحح السماء أخطاء انحراف أهل الأرض، فجاء الإسلام ليجمع منهجه قانون النفس الإنسانية، كما قلنا سابقاً: ماديّة بقيم، وروحانية بحركة.

ولذلك كان الإسلام منهجاً متكاملاً، ختمت به رسالات الله إلى الأرض:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وتحقيقاً لبقاء الإسلام كما هو، دون نسيان، أو كتمان، أو تحريف، أو زيادة؛ مما منيت به الديانتان السماويتان اللتان سبقتا الإسلام، فقد تكفل الحق سبحانه وتعالى بحفظ كتابه:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ولم يجعله سبحانه وتعالى منوط الحفظ بالمكلفين، كما كان بالنسبة للكتب السابقة التي يقول الحق فيها:

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

وفرق بين استحفاظ يطلب الله الحفظ فيه من البشر، وبين حفظ تكفّل به هو جل شأنه.

وبهذا تهيأ للإسلام ما لم يتهيأ لغيره من الديانات الأخرى: حفظ منهج، واكتمال تشريع، وشمول مبادئ.. فليس أمام المسلم إذاً إلا أن يصبّ سلوكه في قالب هذا التشريع الخالد الباقي التام.

وإذا أردنا أن نستقرئ واقع الحياة في تاريخ مباشرة الأديان لمهمتها في الأرض؛ وجدنا واقعاً يستلفت النظر. فالإسلام حين باشر مهمته في تنظيم حركة الحياة البشرية أخرج للعالم حضارة زاهرة، استوعبت كل مجالات الحياة بلا غرور، ولا تحكم، ولا جبروت؛ لأن القيم كانت تحرس هذه الحضارة، والروحانية تشفّ فيها إنسانية، وإخاء، ومساواة، في الوقت الذي كانت فيه أوربا المسيحية تغطّ في سبات عميق من الجهل، وتظلّ في ظلماتها، فتخلفت أوربا تخلفاً نعتوه أنفسهم بالقرون المظلمة، وذلك حين كانت تحكم الكنيسة كل انطلاقات العقول، وطموح المواهب.. فكم من علماء قتلوا.. وكم من مصلحين طوردوا، ولما تخلّى المسلمون عن إسلامهم أصابهم من التخلف ما نرى آثاره اليوم.

والنتيجة التي يجب أن ننتهي إليها بهذا العرض، هو أن الإسلام حينما قاد حياة المسلمين، وساس كل أمورهم، أخذوا حظهم من الرقي والحضارة، فلما عزلوا الإسلام عن سياسة أمورهم أصابهم ذلك التخلف.

والمسيحية حينما حكمت بسلطان الكنيسة، انحط أهلها وتأخروا، وحينما عزلت الكنيسة عن حركة حياتهم تقدموا!

فلننظر إلى دين إذا تمسك به أهله نهضوا.. وحينما تخلوا عنه انحطوا.. وإلى مسيحية كنيسية حينما تحكمت، أدت إلى التخلف الحضاري، وحينما تخلوا عنها ارتقوا.

فلا شك في أن هذه المقارنة تكشف لنا عن سلامة وصحة المنهج الإسلامي الذي حفظه الله، على أننا أطلقنا في كلمة الحضارة التي نالها الغرب نتيجة لتخلصه من سلطان الكنيسة؛ لأنها حضارة لا تمثل الحضارة المرجوّة على يد الإسلام؛ لأنها حضارة عامرة الشكل، خربة الموضوع، لها زخرف الظاهرة، وقبح الباطن. أما الحضارة التي ننشدها بدافع الإسلام، وعلى هدي مبادئه، فإنها حضارة لها روح من قيم وموضوع، من خلق وأهداف، من إنسانية.

ويجب أن لا ننسى أن عملية عزل الدين المسيحي عن الحياة، جاءت نتيجة لتكشّف أحوال الكنيسة، وبدأ الناس يدركون أن طبيعة الدين لا تفي بأغراض حياتهم التي يعيشونها، وأن التشريع المسيحي أصبح يتغير من وقت لآخر تبعاً لأهواء الرهبان والأحبار، فنزعت الثقة من الكنيسة، بعد أن تكشّفت أحوال رجال الكنيسة أنفسهم، وثبتت انحرافاتهم الاجتماعية، بما لا يتفق مع المبادئ المسيحية، ففقد الناس الثقة، وانحط رجال الكنيسة في نظرهم، وأدى ذلك إلى فهم حقيقة الدين المسيحي فهماً مشوهاً، فليس هذا هو الذي نزل به قانون السماء، بل بدّلوه، وغيّروه تبعاً لأهوائهم، وجاءت النتيجة بالصورة التي أفزعت المجتمع، وأدّت إلى انحرافه، ولعل أهمها على الإطلاق هو عدم ثبات المبادئ، وفقدان الثقة في الفئة المشرّعة.

الغزو الفكري

من سُنّة الله في هذا الكون الصراع بين الحق والباطل، وقد تكفّل الله بأن يمد الناس بالحق الواضح، وأن يضعهم على المحجة البيضاء عن طريق الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، حيث تكون منارات الحق واضحة، لا دخل فيها للأهواء الفردية، أو الجماعية؛ التي تأتي نتيجة التعصب للجنس، أو الوطن، أو المعتقدات الفاسدة. قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] وحتى يتم إحقاق هذا الحق، وإبطال الباطل الذي يناقضه جعل الله الصراع بين الحق والباطل سُنَّة اجتماعية، وتاريخية ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وبقدر ما يتحمل مجتمع من المجتمعات تكاليف القيام بواجبات هذا الحق، ويبذل من أجله بقدر ما يضمن رعاية الله، وتكون له السيادة، والنصر على الباطل ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

وقد مضت سُنَّة الله على ذلك، وصدق وعده: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٣٣]. وقد حملت الأمة الإسلامية لواء الحق، وتمّمت بناء الأنبياء، وانتشرت ألويتها شرقاً وغرباً.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن الآن هو: ما الذي أوقف هذا الامتداد، وأقام أمامه العقبات؟ وجعل ذلك المسلم العملاق يتحول إلى

قزم صغير مسجون في أسماء قومية، ومذهبية وافدة من هنا وهناك؟ إن الإجابة على هذا السؤال مُرّة، ولكن لا بدّ أن نتقبل مرارتها، فإن الأمم لا تنهض إلا إذا عرفت واقعها، وجسّدت داءها، وعرفت حقيقة أمرها؛ لأن الكلمات الجوفاء، والعبارات الانفعالية لا تغني من الحق شيئاً.

هناك جانبان لا بد لنا أن نتعرض لهما إذا ما أردنا أن نسهم في اكتشاف هذا الانكماش الذي ابتليت به الأمة الإسلامية، أفراداً وجماعات، وكلا الجانبين أثر لداء واحد.

أما الجانب الأول فهو ذلك التفتت النفسي، والضحالة الذاتية التي أصابت الفرد المسلم، وجعلته تابعاً، تائهاً، لا تتحقق فيه صفات المسلم الحق، وذلك بسبب غزو الفكر الأخلاقي الذي تعرض له قرابة قرن ونصف.

والجانب الثاني هو ذلك التخطيط البعيد الذي تم منذ مطلع النهضة الأوربية التي فتحت لها عالم الصناعة، والقوة، والثراء، والمدنية الحديثة، وتم لأوربا ما خططته، وحبكته، فضربت المسلمين في عقر دارهم، ولكنها لم تقبل هذه المرة أن تضرب وتكتفي بالنصر العسكري، وتقسيم الأسلاب بينها، بل إنها فكرت في اجتثاث الأصول الفكرية، وتشويه القيم الأخلاقية والروحية، وتحويل المسلمين شيئاً فشيئاً عن طريق وسائلها المبتدعة، وخططها المحدثة عن الانتماء إلى هذه الأمة إلى انتماءات جديدة، وولاءات مبتكرة.

ولقد قامت النهضة الأوربية على التخلص من دور الدين في توجيه الحياة، وجعله مجرد مؤسسة عتيقة، تشبع الميول الفردية لدى المجموعات التي ظلت على ولائها الديني؛ ولهذا فإن النهضة الأوربية حينما دخلت إلى العالم الإسلامي حملت كل الأوزار التي زينها النصر، وحصنتها الاكتشافات والمخترعات الحديثة، فألقت بكل هذه الأوزار إلى العالم الإسلامي.

فقضية فصل الدين عن الحياة، وقضية إحياء القوميات، وقضية

تحميل العلم التجريبي ما لا طاقة له به، ومحاولة إخضاع الغيب لمقاييس العلم التجريبي المحدود، وإنكار ما عدا ذلك، كلها قضايا نقلت إلى العالم الإسلامي، ودخلت إليه مع التقدم التكنولوجي، وفتن بها البسطاء والمخدعون، والذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا.

وتحت ظل الاحتلال الشامل بدأت نماذج الأنماط الفكرية والاجتماعية تأخذ طريقها إلى المجتمعات الإسلامية؛ وفق مخططات مدروسة اتخذت خطين متوازيين:

الخط الأول:

هدم القيم والمعتقدات السائدة في المجتمع الإسلامي، وتشويهها، وتدعيم الخرافات.

الخط الثاني:

استبدال القيم الإسلامية بأخرى غريبة قدر الإمكان.

فبالنسبة للخط الأول عمل المستعمرون جهدهم لإزالة أهم عقبة تقف في سبيل أغراضهم، وذلك بالعمل على اهتزاز المفاهيم الإسلامية في نفوس أبناء المجتمع الإسلامي، وساعدهم في ذلك زمرة من الذين انتسبوا إلى الإسلام ظلماً وبهتاناً، ولقد ساعد على نجاح خطتهم هذه ما كان عليه المسلمون من غفلة وانشغال عن أمور دينهم، وانصراف علمائهم إلى حكامهم يسترضونهم، وفتور الحماس الإسلامي، وانتشار الجهل، وعدم الإقبال على الدين.

ومن بين الطرق التي اتبعوها لتحقيق هدفهم هذا[1]:

أ ـ نشر النظريات العلمانية اللادينية:

وهي نظريات يقصد بها التشكيك فيما يقول به الدين؛ بغرض فصل

(١) العالم الإسلامي ومحاولة السيطرة عليه ـ محمود شاكر.

الدين عن الحياة.. وقد اتبعت هذا المنهج فرق متعددة من نصارى العرب، ونصارى الشام خصوصاً، وقد كان هؤلاء جميعاً لا يشاركون المسلمين عواطفهم نحو الحكم الإسلامي القائم، فتعلقت آمالهم بالفلسفة الغربية؛ التي تقوم على أساس الفصل بين الدين والدولة، وقد شارك في هذه الدعوة طائفة من المسلمين، وظهرت خطورة هذا الاتجاه عندما بدئ في تأسيس الصحف؛ التي تتسم بطابع فصل الدين عن مجالات الحياة، وتعطيل أحكام الشريعة التي تزعمت الدعوة العلمانية (اللادينية) في الفكر العربي المسلم، وعملت على تنشئة جيل يخدم أهدافها.

ثم جاءت الحملات التبشيرية المركزة، ولم يعد خافياً اليوم على العاملين في حقل الدعوة الإسلامية دور التبشير في العالم الإسلامي، والذي كان ولا يزال يعمل على أوسع نطاق للتشكيك في المبادئ الإسلامية، وتتم هذه الحملات في غفلة عن المسلمين أنفسهم، وهم يضحكون في سذاجة، أو يضربون كفاً بكف في تواكل وبلاهة، وهم يرون الطعنات توجه إلى جسم العالم الإسلامي اليوم: في أفكاره، وسلوكه، وأخلاقه، وتقاليده، تحت شعارات التقدم، والتطور الحتمي، وأن أي مقاومة لهذا التطور هي الرجعية التي لا ينبغي لأحد أن يتصف بها؛ لأنها تعني الجمود، والانحطاط، والتأخر!!.

ب ـ القوميات:

عمل المستعمرون على تفتيت الأمة الإسلامية، وتوزيع ولائها؛ تسهيلاً لهم على هزيمتها فكرياً، فظهرت فكرة القومية، وذلك بهدف إضعاف عنصر العقيدة الإسلامية؛ التي تجمع شمل المسلمين، وتظهرهم بمظهر القوة، فضلاً عن بثّ الفرقة بين أبناء الوطن الواحد، فإذا ما تم لهم ذلك بدأت المناداة بترك كل سمات الوحدة حتى في الوطن الواحد، وكل يدافع عن فكرة مختلفة، حتى ظهرت دعوات لترك اللغة العربية،

والتعصب للمحلية، كالذين نادوا بالهيروغليفية لغة لمصر، والفينيقية لغة للبنان... وهكذا، دون أن يدركوا أن عالم اليوم هو عالم فكر، حتى إن بعض الدول التي تعادي الإسلام، وتحاربه، ويتخذها البعض صديقاً أو مثلاً، هذه الدول تضم مجموعات من القوميات تحت فكرة واحدة.

فلو ألقينا نظرة على محاضر المؤتمر الأول للمجامع اللغوية بدمشق عام (١٩٥٦م) لبحث شؤون اللغة العربية؛ الذي اجتمع فيه مندوبون من جميع المجامع اللغوية العلمية في مختلف البلاد العربية، ومندوب يمثل هيئة اليونسكو.

فاللغة العربية، التي بحث المؤتمر شؤونها، هي أقوى ما تقوم عليه الدعوة العربية من الروابط، وهي الرابطة التي ارتفعت حتى الآن فوق كل مراء، فقد مارى أعداء العروبة زمناً في أن العرب ينتمون إلى جنس واحد، فسمعنا أصوات المنكرين من الشعوبيين دعاة الجاهلية الأولى بين فرعونية، وفينيقية، وآشورية، وبابلية. ومارووا حيناً في ارتباط القومية العربية بالإسلام، فسمعنا من يزعم أن هذه الصيغة تنفر غير المسلمين من العرب، وظلت رابطة اللغة بعد ذلك تسمو على كل مراء، لا ينازع منازع في أنها هي الرباط الأقوى بين العرب.

لذلك كان آخر ما يتوقعه القارئ في الكتاب الذي جمع ما ألقي في هذا المؤتمر من بحوث أن يجد فيه ما يعين على توهين هذه الرابطة، أو تفريق المجتمعين عليها، من مثل الدعوات المريبة الهدامة إلى مسخ اللغة الفصحى، أو تبديل قواعدها وخطها.

ولكن واقع الأمر جاء مختلفاً عما يتوقعه القارئ، وما يرجوه، فامتلأ الكتاب في مواضع مختلفة بالدعوة إلى العامية، وإلى تبديل الخط العربي، وقواعد النحو والصرف والبلاغة.

ولا يخفى أن المراد بالدعوة إلى العامية، وإلى الحروف اللاتينية،

وإلى إبطال النحو وقواعد الإعراب هو التشكيك بقرآننا وبلغته، وبإسلامنا وبكل تراثه.

بقي بعد ذلك أن نشير إشارة موجزة إلى مصدر هذه الدعوات، كيف بدأت، ومن أين ثارت، فقد يعين ذلك على تصور مبلغ ما تنطوي عليه من الصدق، والإخلاص، والبراءة من الهوى.

لم يسمع لداع بهذه الدعوة صوت قبل القرن الأخير، فالدعوة لم تنشأ إلا في ظل استعباد الغرب لبلاد العرب والمسلمين، وفي حمايته من ناحية، وفي حضانة التبشير من ناحية أخرى. ويكفي أن أذكر في ذلك على سبيل الاختصار أسماء سبتا Wilhem. Sippta وفولازر M. Bouriant وماسبيرو M. Gaston Maspero الذين قادوا هذه الدعوة في مصر سنة (١٨٨٠م) فصدر صداها في جريدة المقتطف الشهرية أولاً سنة (١٨٨٢م) ثم انتقل إلى بقية السماسرة[١].

ولكي ندرك خطر هذه الدعوات، ونفهم حقيقة مغزاها، لا بد لنا أن نقرنها إلى أمثالها، فننظر إليها في ظل ما نسمعه من الدعوة إلى تطوير عاداتنا وتقاليدنا، وتطوير زي نسائنا ورجالنا، وتطوير قيمنا ومثلنا الأخلاقية والاجتماعية، وتطوير تشريعنا، بل تطوير إسلامنا نفسه. ومن أجال النظر في هذا كله، وقرن بعضه إلى بعض، عرف أن أصل هذه الفروع واحد، وأن روح الدعوة فيها جميعاً واحدة، وأن أصحابها لا يقنعون إلا بقطع ما يربطنا بإسلامنا من وشائج، وصلات. عند ذلك نفقد طابعنا، وإذا فقدنا طابعنا فقدنا كياننا، وفقدنا القدرة على التكتل والتجمع، وأصبح من اليسير على الشرق، أو الغرب، أو كائناً من كان من خلق الله؛ أن يلحقنا به، ويجعلنا تابعين له، ندور في فلكه، ونسبّح بحمده من دون الله!!

---

(١) حصوننا مهددة من داخلها في أوكار الهدامين، د. محمد محمد حسين، ص٢٥١، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت (١٩٦٨م)، طبعة ثانية.

أما بالنسبة للخط الثاني، وهو استبدال القيم الإسلامية بأخرى غربية، فقد قام الاتجاه نحو الأساس المهم في تكوين الأمة، وهو التعليم، وقد اتخذ هذا الاتجاه طرقاً ثلاثة:

أ ـ المشاهدة والتقليد.

ب ـ الاعتماد على مصادر الدراسات الاستشراقية في المجالات الإسلامية، والوقوف عندها.

ج ـ تغيير وتبديل النظم والمناهج التعليمية في البلاد الإسلامية.

فقد بدأ المستعمرون، بحكم قوتهم وغلبتهم، يجلبون النماذج المختلفة من النظم والتقاليد الاجتماعية، وأصبح تأثير الحضارة الغازية أكثر قوة وفاعلية بانتقالها مع الجاليات الأجنبية التي استقرت في بلاد المسلمين، وأصبحت تحيا بين ظهرانيهم، وتعيش في قلب بلادهم، وتقدم النموذج المتحرك لأنماط الفكر، والحياة الاجتماعية. وقد فرضت الدول الغربية لغاتها وثقافاتها في البلاد التي احتلتها؛ تيسيراً للغربي المستعمر للتعامل من ناحية، وتمهيداً لاستساغة طابع المستعمر، وامتصاص تقليده من ناحية أخرى.

وفي فترة الاحتلال الاستعماري جاء زبانية الصهيونية، أمثال المستر، دنلوب، المتخرج في كلية اللاهوت البريطانية، حيث رسم سياسة التعليم فيها، ووضع برامج دراسية، كان الجهل أفضل منها.. فقد خطط لازدواجية التعليم في مصر، ولإيجاد فئتين من المثقفين، هناك فئة ثقافتها دينية، وفئة ثقافتها عصرية، وبعدها فلتصطرع الفئتان، ولتنفقا طاقتيهما في مقاومة بعضهما في الداخل، بدل أن يوجهوها لبناء الأمة، ودحر الأعداء. ونشأت الازدواجية، ونجح الاستعمار في إدخال الصراع الفكري في أجيال أمتنا. وكان من شأن مخططاته إبعاد الأزهر عن مكان القيادة لا في مصر وحدها، بل في العالم الإسلامي كله.. ففتحت المدارس الحكومية تدرس العلوم المدنية، وتعلم اللغات، ويعين

خريجوها برواتب مرتفعة؛ مما دعا إلى انصراف الناس إليها طمعاً في الوظائف، ولم يبق للأزهر في ذلك الوقت سوى الفقراء، وأبناء الأسر الضعيفة. وقد أعيدت صياغة المناهج في هذه المدارس حيث تحد من قدرة الطالب على الاطلاع والاقتباس، فضلاً عن إنقاص دروس القرآن والدين بطريقة جعلت هذه الحصص شبه معدومة، مع وضعها في نهاية اليوم الدراسي، بعد أن يملّ التلاميذ، ويتعبوا.

وتوسع دنلوب، فأنشأ مدارس الثانوية الخاصة لدفع الموجة الصليبية خطوات إلى الأمام، فأنشأ مدارس تسير على المنهج الهدام، وتستبعد الإسلام وقضاياه.. وتعمدت البرامج والمناهج في هذه المدارس طي كثير من الصفحات الناصعة في التاريخ الإسلامي، وإهمال الأحداث ذات العبر التي تمثل واقع الإسلام وحقيقته، وعلى سبيل المثال اقتصرت مؤلفات السيرة النبوية التقليدية على سرد أحداثها، وتعدادها بأسلوب جاف، من غير تحليل أو تعليق لمدركات القوة التي كانت تسيّر هذه الأحداث، والغاية منها. ولم تتعرض، بحال، إلى أسلوب الدعوة الإسلامية، والاتجاهات، والميادين التي كان يتحرك فيها رسول الله ﷺ، ومقدار ثباته، وتصميمه، وكيف كان يقضي يومه في الحركة والعمل الإسلامي، وكيف كان أتباعه رضي الله عنهم ينفقون حياتهم، وكيف صمدوا هذا الصمود، ومعانيه، ووسائل البطش التي تحملوها، وبيان المستوى الجديد في فهم الإنسان وغاياته، والمعاني البناءة، والخلق المتسامي، والمفاهيم الرفيعة، وسعة حدودها أمام ضيق الجاهلية ودنسها، لم يعد الطالب في ظل المناهج الغربية ليعرف شيئاً عن أمجاده، وعظمائه، والتاريخ الإسلامي.

وقد كان لهذه المناهج أثرها الواضح في أفكار الناشئة؛ لما تركته من تأثير على عقولهم، وشعورهم بالنقص فيما يتعلق بثقافاتهم الخاصة، وبماضيهم التاريخي الخاص، وهكذا يتربّون تربية منظمة على حساب

مثلهم، وتربيتهم. واستمرت خطة تبديل المناهج الدراسية، وسلك الاستعمار الغربي في ذلك كل الطرق، حتى تغلغلت مناهجه في كل الميادين، فشملت السلوك الفردي، والآداب الاجتماعية، والفنون، والآداب، وأسهمت البرامج الدراسية، والصحافة، والمؤتمرات الدولية التي يتعاونون فيها مع المستشرقين في توجيه الفكر الإسلامي، بل أسهمت أيضاً المنظمات الدولية، بما فيها الأمم المتحدة، ومؤسسة اليونسكو والتربية الأساسية، على وجه الخصوص، والتي تعدّ امتداداً لمخططات معينة، مستخدمة في ذلك أساليب نشر الاهتمام بالآثار القديمة عن طريق الدعوة إلى دعم العصبيات الإقليمية، حتى رأينا من بين المسلمين من يتنكر للإسلام، ويطالب بإسلام حديث.

ومن عيوب هذه المناهج أنها مبتورة الصلة بالله، لا تدري موضع الله سبحانه فيها، وليس لها فاعلية في تسيير الأحداث في تيار الحياة، وتنظيم علائق الموجودات. وهذا لا شك قد ترك أكثر الأثر في عقول الدارسين، حيث تصوروا وهماً معيناً تمثل في سلوكهم العملي، وهو أن هناك تعارض بين الدين والعلم، فإذا ناقشت أحدهم في الدين أول ما يجيبك: ما لنا وللدين، نحن في عصر العلم، نحن في عصر الصواريخ، مع أن الدين والعلم من مصدر واحد، وهو الله، وأحسن أطوار البشرية هي التي نرتقي فيها علمياً ودينياً.

ولا شك أن هذا خبث يهودي أثّر في العالم كله، وكان فارسه الأول اليهودي «دارون» الذي افترض وهم التطور، فكان لهذا الوهم أثره في مناهج جميع العلوم.

ومن عيوب هذه المنهاج «أميّة التفكير»، لا أمية القراءة والكتابة، حيث قصد بها أن تخلق من الدارس إنساناً (مجتراً)، كل جيل يجتر لما بعده، دون تمحيص أو زيادة، وكان لهذا أبعد الأخطار، فقد قتلت روح البحث في نفوس الدارسين، وظلوا عالة على أفكار الأوربيين التي

طبخت بشكل يخدم أهداف الصهيونية والصليبية، ثم قدمت للدارسين المسلمين على موائد الدرس، ومعاهد التعليم.

ومن عيوب هذه المناهج أنها نظرية، بعيدة عن التجربة العملية، وانعكس في هذا سلوك الأفراد، فالعلم والشهادة إنما هما للوظيفة والشهرة، ونتيجة لذلك فقد تحول غالبية الدارسين لدراسة ما يوفر المال والجاه، وبذلك تضخم الجانب المادي، وهبط الجانب المعنوي، ولم يبق لدراسة العلوم النظرية من أدب وديانة سوى من تخلفوا عن الحصول على المعدلات المشترطة لذلك، أو انقطع بهم المال الذي يمكنهم من ذلك.

ومن عيوب هذه المناهج أنها تزرع الغرور الأدبي والمادي، فمن الناحية الأدبية يرفض الخريج مواصلة البحث، ويرفض قبول أي رأي يخالف هواه، ويفترض بنفسه أنه لا يجهل أي علم كان، فهو موسوعة علمية متجددة متحركة، لا تتحدد بمكان، ولا تتوقف بزمان، تعتمد على الوحي والإلهام. ومن الناحية المادية يرفض الحياة المتوسطة في المأكل، والملبس، والمسكن، ومن هنا يقع فريسة لكل الأمراض النفسية التي توصله إلى شهواته الهابطة.

وفوق كل هذا، وقبل كل هذا، فإن الهدف من هذه المناهج: تغريب الأجيال المسلمة بطريقة محكمة، تُنَفّر الناشئة من الإسلام حتى تخجل من الانتساب إليه، بتحقير التراث الإسلامي عامة في أعين الناشئة، وإدخال النظم الغربية في جميع مجالات الحياة، وإحياء العصبيات القديمة، وتفتيت وحدة العالم الإسلامي، ثم إخراج المرأة بالذات من عاداتها المسلمة.

والآن وبعد هذا العرض الموجز لصورة من صور التخطيط الغربي لغزو العالم الإسلامي غزواً فكرياً، ماذا كانت النتيجة؟

لقد أصبح الوضع، كما أشرنا في مقدمة الكتاب، وضعاً مؤلماً

أثمرت فيه دسائس الغرب وأنصاره، وأنبتت سمومه فساداً انتشر في كل مكان.

وبعد.. فإذا كانت هذه هي المشكلة، فما طريقة العمل؟

لقد عرضنا أبعاد المشكلة، ثم الهدف الذي نريد الوصول إليه، والغاية التي ننشدها، وننشد الوصول إليها. ولكن يبقى السؤال الأساسي وهو: كيف، وما طريقة الوصول إلى هذا الحل؟

والطريقة ـ في رأيي ـ هي: أن نبدأ بإصلاح أحوال التعليم في بلادنا الإسلامية.. أن نصحح شأن المدرسة الابتدائية.. والثانوية.. والجامعة، ومعاهد العلوم الدينية الخاصة.. علينا أن نعيد النظر في السياسة التعليمية في البلاد الإسلامية.. ونعيد بناء مدارسنا من جديد بصورة تحقق لها الصبغة الإسلامية الكريمة على أساس إسلامي عصري.. فيه روح الإسلام.. وفيه تكنولوجيا العصر الحديث.. وعلومه النافعة.. وعلينا أن نحرص تماماً على أن يصبغ الجو المدرسي بروح التربية الإسلامية. ولقد بدأت معركتنا مع أعداء الإسلام من المدرسة، حيث عبثوا بمناهجنا، وبمدارسنا، فعلينا إذاً أن نعيد بناء الهيكل التعليمي، والجوهر التعليمي، وذلك بإعداد جيل مسلم يؤمن بالعقيدة الإسلامية ويفهمها.. ويعتز بها من جهة، ونهذّبها مما رجمت به من أوزار وآثام باسم المدنية والتقدم، وأهم خطوات العمل ما يلي:

١ ـ إصلاح أحوال المناهج الدراسية في بلادنا الإسلامية، وتقويتها، وإعادة بنائها على أسس إسلامية لتكوين الشخصية الإسلامية، والعقلية الإسلامية التي تنظر إلى الحياة نظرة متميزة هي النظرة الإسلامية، وتفسر العلوم جميعها تفسيراً إسلامياً.

٢ ـ وضع سياسة تعليمية تنبع من روح الإسلام وتعاليمه، وتسعى للأخذ بيد المجتمع المسلم إلى غد مشرق، وحياة كريمة ترتكز على

الإيمان، والعقيدة الصادقة، ويستخدم فيها الإنسان المسلم الأساليب العلمية والتكنولوجية الحديثة.

٣ ـ الاهتمام ببث الثقافة الإسلامية بصورة نيّرة ومشرقة في مناهج الكليات الجامعية المختلفة، مثل: كليات الهندسة، والطب، والعلوم، والآداب، وغير ذلك، لكي يكون الشباب المسلم على صلة بالعقيدة، ونخاطبه في هذا المستوى بلغة يفهمها، ويدركها، ونتحدث إليه عن جوهر الإسلام بطريقة تتفق مع عقله، ومستوى حصيلته، مع تزويده بالتصور الإسلامي المتكامل للحياة الإسلامية المبينة على العلم والعمل، وعلى العقيدة والجهاد، وعلى أن الإسلام نظام متكامل للحياة يحل مشاكلها الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والسياسية، وغير ذلك بأسلوب أصيل يحافظ على أصول الإسلام، وبمرونة تلبي متطلبات العصر، وإلا أصبح الشباب في واد.. والدعوة في واد آخر.

٤ ـ الاهتمام بالفتاة المسلمة، ومناهجها، ومدارسها، ومجتمعها، وإعطائها الفرصة المناسبة في المدرسة لبناء ثقافتها، وعلومها على أسس سليمة، وعقيدة صحيحة، فكما قال الشاعر:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيّب الأعراق

وإلا فقدنا المرأة، وتلقفتها أفكار طارئة غير إسلامية، فنكون كالطائر الذي يحاول أن يطير بجناح واحد.

وقد بلغت عناية الإسلام بتعليم النساء، وتربيتهن أنه تجاوز تعليم الحرائر، إلى الحث على تعليم الإماء، وقرن أجر تعليمهن بأجر عتقهن (أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها، فأحسن تعليمها، وأدبها، ثم أعتقها، وتزوجها، فله أجران).

٥ ـ الاهتمام بنشر روح البحث، والدراسة، والاطلاع بين شبابنا منذ نعومة أظفارهم؛ لأن الجيل الحالي جيل تعوّد على استهلاك الوقت

في الكلام.. والجدال الفارغ الذي لا جدوى وراءه.. فلا بد إذاً من غرس روح الاطلاع، والتجربة، والبحث في نفوس صغارنا منذ نعومة أظفارهم.

٦ ـ الاهتمام بمعسكرات الشباب، وتنظيمها، والإشراف عليها بصورة تحقق معنى التربية الإسلامية.

٧ ـ السعي بقدر الإمكان إلى اختيار القدوة الصالحة للأطفال.. والشباب وخصوصاً في المدرسة.. وبتر الأعضاء الفاسدة، والقدوة السيئة.. ونبتعد في هذا المجال عن الحلول الوسط، فلا حلول وسط هنا بالنسبة لموضوع التربية.

٨ ـ اختيار الصور المشرقة من تاريخنا الإسلامي، وتقديمها في صور مناسبة للأطفال والشباب؛ لتمكنهم من الاطلاع على تراثهم الحضاري بصور تتفق مع قدراتهم، ومستوياتهم.

٩ ـ أن نكون صرحاء في بحث أمراض مجتمعنا لتشخيص الداء.. ثم التعاون من أجل إيجاد العلاج المناسب دائماً.

١٠ ـ ضرورة بناء فلسفة التربية والتعليم على الإيمان بالله، والمثل العليا للأمة الإسلامية، وأن يكون هذا الإيمان مصدراً للسلوك العام والخاص للفرد والمجتمع.. والتركيز على التربية قبل التعليم، تربية شخصيتهم بالاهتمام بوجدانهم، ومشاعرهم، وعواطفهم، واتجاهاتهم في الحياة، فبناء هذه الشخصية يحتاج إلى عقيدة يعيش الإنسان بين عالمين: عالم الغيب، وعالم الشهادة.. حيث يتخرج عندنا المثقف المسلم، والمهندس المسلم، والطبيب المسلم، ليعملوا كلهم يداً واحدة مع العالم المسلم في نشر رسالة الإسلام، وتحقيق أهدافه كل حسب اختصاصه، وكل على أسلوبه الخاص الذي يتكامل مع غيره من الأساليب، ودون هذا التنسيق سيظل الصراع الفكري ينخر في أجيالنا المثقفة على حساب الإسلام العظيم.

وبعد هذا العرض السريع للجهود، والمحاولات المختلفة التي ظهر لنا من خلالها كيف بذل الاستعمار الصليبي، والفكر الغربي في تحويل المسلمين عن الإسلام، وتوجيههم إلى وجهات غريبة عن الإسلام، على الرغم من أنهم تمكنوا من تفتيت العالم إلى دويلات، وأمسكوا بكل ولاية على حدة، وعزلها عن أخواتها بإثارة الأحقاد، والمنازعات.

وعلى الرغم من أنهم تمكنوا في كثير من المجتمعات الإسلامية من عزل الدين عن المجتمع بأفكارهم المختلفة، وعزل الشريعة، وتعطيلها عن إدارة الحياة.

وعلى الرغم من الحرب المستعرة ضد كل فكرة لإحياء الدين الإسلامي، وإعادته إلى الواقع الحي المتحرك البناء، وذلك بالتنكيل، والتعذيب، والإغراء..

وعلى الرغم مما بذلوه من مجهودات لتخطيط سياسة للتعليم في بلاد المسلمين، ما أبعد الشباب عن منابع الفكر الإسلامي الأصيل، وغرسوا في نفوسهم الشبهات، وألوان الشك حتى تمكنوا من إخراج جيل من المثقفين في كل بلد إسلامي ينفر من الدين الإسلامي، ويرى فيه الجمود، والرجعية.

وعلى الرغم من ذلك كله.. علينا ألا نفقد الأمل، وألا يتسرب اليأس إلى القلوب، فإن أبناء الإسلام سيسجلون انتصارهم، وسيبقى الإسلام لهم، وللعالم أجمع أفضل مناهج الحياة، وأعظم وسيلة لإنقاذ البشرية من الهاوية.

وذلك يوم تتوافر للأمة الإسلامية القدوة الصالحة من بين أبنائها، فنجد البيت المسلم الذي يقدم للمجتمع الأبناء الصالحين.. والمدرس المسلم الذي يدفع للحياة بخريجين، ومثقفين على وعي وبصيرة، بالمنهج التعليمي الصحيح، والعالم العامل الذي يعطي للدعوة إلى الله حقها في ورع، ولا يخشى في الحق لومة لائم، والحاكم الصالح الذي يقود الأمة

نحو الإسلام الناصح، والعقيدة الصافية. ويوم أن تتواجد هذه النماذج الصالحة فإن المسلم يستطيع أن يميز بين ما هو إسلامي، وما هو دخيل مستجلب من شرق أو غرب، حيث يصبح هذا التمييز حياً في نفوس الأجيال القادمة؛ ليختاروا من المدنية الحديثة ما يناسبهم، ويتفق مع منهجهم الإسلامي الكريم.

ولا بد من استمرار الدعوة إلى الله، وإحياء الفكر الإسلامي، واستعادة مجده وحضارته على أيدي الفئة المؤمنة المجاهدة؛ التي تدين، وتستقيم على نهجه، ثم تحمله إلى الناس بقوة وإصرار مؤيدة بنصر من الله، وحسن رعايته، وستلاقي هذه الفئة في طريقها العقبات من جهل الجاهلين، وكيد الحاقدين، وطمع الطامعين ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] وستكون العاقبة لهذه الفئة، كما ضمن ذلك لها رسول الله ﷺ إذ يقول: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرها من خذلها، ولا من خالفها حتى يأتي أمر الله**».

ويومئذٍ تعيش الإنسانية فطرتها التي فطرها الله عليها: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ﴾ [البقرة: ١٣٨].

وبعد: فإنه لا يخفى على المطلع الخبير أن لنظام التعليم روحاً وضميراً كالكائن الحي، له روح وضمير، إن روح نظام التعليم وضميره إنما هو ظل لعقائد واضعيه، ونفسيتهم، وغايتهم من العلم دراسة الكون، ووجهة النظر إلى الحياة، ومظهر لأخلاقهم، وذلك ما يمنح نظام التعليم شخصية مستقلة، وروحاً وضميراً بذاتهما، إن هذه الروح هي التي تسري في هيكله تماماً. إنها تسري في جميع العلوم، في الأدب، والفلسفة، والتاريخ، والفنون، والعلوم العمرانية حتى في علمي الاقتصاد والسياسة، حيث يصعب تجريدها من هذه الروح.

تلك هي قصة نظام التعليم الغربي، فإنه يحمل روحاً مستقلة، وضميراً منفرداً تتجلى فيه عقيدة مؤلفيه، وعقلية واضعيه، وهو تعبير عن أفكار أهل الغرب، ومجموع أقدارهم، وقيمهم، فإذا ما طبق هذا النظام التعليمي في بلاد مسلمة، أو مجتمع إسلامي يحدث به قبل كل شيء صراع عقلي، ثم يتدرج ذلك إلى تزعزع العقيدة، والردة الفكرية، وأخيراً إلى الردّة الدينية. وما أحسن ما كتبه محمد أسد الذي له خبرة واسعة لنتائج نظام التعليم الغربي في الشرق: «لقد بسطنا القول في الفصول الماضية بعض الأسباب المؤيدة للرأي القائل بأن الإسلام، والمدنية الغربية ـ وهما يقومان على فكرتين في الحياة متناقضتين تماماً ـ لا يمكن أن يتفقا، فإذا كان ذلك كذلك، فكيف نستطيع أن نتوقع أن تظل تنشئة أحداث المسلمين على أسس غربية، تلك التنشئة القائمة في مجموعها على التجارب الثقافية الأوربية، وعلى مقتضياتها، خالصة من شوائب النفوذ المعادي للإسلام؟»[1].

ثم يقول بكل حماس، وصراحة:

«وإذا كان المسلمون قد أهملوا فيما مضى البحث العلمي؛ فإنهم لا يستطيعون أن ينتظروا إصلاح هذا الخطأ عن طريق قبول التعليم الغربي من غير وازع ما، إن كل تأخرنا العلمي، وكل فقرنا لا يوزنان بذلك التأثير المميت الذي سيحدثه تقليدنا الأعمى لنظام التعليم الغربي في قوى الإسلام الدينية الكامنة، إذا أردنا أن تحفظ حقيقة الإسلام على أنها عنصر ثقافي؛ فيجب علينا أن نحترس من الجو الفكري للمدنية الغربية، ذلك الجو الذي أصبح على وشك أن يتغلب على مجتمعنا، وعلى ميولنا، وبتقليد عادات الغرب، وزيّه في الحياة يصبح المسلمون تدريجاً مضطرين إلى الأخذ بوجهة النظر الغربية، إن تقليد المظاهر الخارجية

(١) الإسلام على مفترق الطرق، ص٧٣.

يقود شيئاً فشيئاً إلى تقبل الميل العقلي المصاحب لذلك»[1].

ويقرر المستشرق المعروف «جب» Gibb في كتابه «وجهة الإسلام» أن التجدد والتفريخ في الشرق إنما هما خاضعان لمقياس نظام التعليم الغربي، ومدى سيطرته، وتغلغله في المجتمع الإسلامي الشرقي، ويلاحظ أن النشاط التعليمي والثقافي (عن طريق المدارس العصرية والصحافة) قد ترك في المسلمين ـ من غير وعي منهم ـ أثراً جعلهم يبدون في مظهرهم العام لا دينيين إلى حد بعيد، ثم يعقب على ذلك بقوله: «وذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار»[2].

لقد كان نظام التعليم الغربي محاولة عميقة وخفية لإبادة العنصر الإسلامي، والقضاء عليه، وانتقل مفكرو الغرب من طريقتهم الممقوتة القديمة التي كانوا يؤثرونها إلى إبادة الأجيال، والفتك بها على هذه الطريقة الجديدة التي قرروا صوغها في قالبهم، فأسسوا لهذا الغرض مراكز باسم الكليات، والجامعات.

وقد عبّر عن هذه الحقيقة التاريخية أحسن تعبير فيلسوف الإسلام محمد إقبال؛ الذي اكتوى بنار نظام التعليم الغربي شخصياً، وخاصة في دراسته، فأبدى حقيقة في أسلوب عميق حين يقول: «إن نظام التعليم الغربي، إنما هو مؤامرة على الدين، والخلق، والمروءة»، ويقول أيضاً: «إيّاك أن تكون آمناً من العلم الذي تدرسه، فإنه يستطيع أن يقتل أمة بأسرها».

ثم يعبر عن هذا الانقلاب الهائل، والتحويل الجذري الذي يحدثه نظام المعارف الحديث بقوله:

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق، ص٧٣.

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/ ٢٠٤.

«إن التعليم هو (الحامض) الذي يذيب شخصية الكائن الحي، ثم يكوّنها كما يشاء، إن هذا (الحامض) هو أشد قوة وتأثيراً من أي مادة كيميائية، وهو الذي يستطيع أن يحوّل جبلاً شامخاً إلى كومة تراب».

وقال أيضاً: «إن سحر الإفرنج أو فنّه أذاب الصخور، وأسالها ماء».

وإن مؤلف (الإسلام في التاريخ الحديث) W.C. Smith يعترف بالتأثير الفعلي العميق الذي يتركه التعليم الغربي الحديث، ومراكزه في العالم الإسلامي، أنه يقول وهو يتحدث عن حركة التنور، والتسامح في العالم الإسلامي.

«إن أهم أسباب حركة الحرية والإباحية التي تسود اليوم في العالم الإسلامي، ومن أكبر عواملها نفوذ الغرب، وقد سافر كثير من الشباب المسلم إلى الغرب، واطَّلعوا على روح أوربا وقيمها، وأعجبوا بها إلى حد كبير، وينطبق هذا خاصة على الطلاب الذين درسوا في جامعات أوربا بعدد لم يزل يزداد مع الأيام، وهم الذين سببوا استيراد كثيراً من أفكار الغرب، وقيمه إلى العالم الإسلامي، وقد حازت قصب السبق في هذا المضمار تلك المعاهد الثقافية؛ التي قامت بتربية جيل بأكمله على النمط الغربي الحديث.. إلخ»[1].

(١) Myi, Life, A Fragment, p. 24 - 30.

الإسلام والفكر حول الإسلام

ندرك تماماً كأمة مسلمة أن الإسلام نظام متكامل للحياة، وهذا أمر لا خلاف فيه حتى بالنسبة للمستشرقين الذين درسوا الإسلام، واعترفوا بهذه الحقيقة؛ لأن الإسلام نظام متكامل، وشامل، وقواعده ثابتة، ولم يطرأ عليه في نصوصه الأصلية ما يحرّف أصل العقيدة، فعلى الرغم من التشويهات التي دخلت على الإسلام في الفترات التي تميّزت بالتقهقر، والتخلف في الأمة الإسلامية، فقد ثبت أن القرآن لم يدخل عليه بالإجماع أيّ تغيير، أو تبديل، وقد أظهرت التحقيقات العلمية من جانب المستشرقين أنفسهم أن القرآن بقي محفوظاً بالصيغة التي نزل بها على الرسول ﷺ، فلا مجال إذاً للطعن في نصوصه.

فالذي نعلمه علم اليقين، ويعلمه كل باحث منصف أن كتاباً غير القرآن لم يحط بالعناية التي أحيط بها، ولم يصل كما وصل، فجاء كما قال شفالي: «**أكمل وأدق مما يتوقعه أيّ إنسان**»[1].

وكذلك الأمر بالنسبة للأحاديث النبوية، فقد تم تحقيقها تحقيقاً علمياً، واستبعد كل ما هو مشكوك فيه، وميّزت إلى طبقاتها المختلفة: الصحيح، والحسن، والضعيف، والغريب، والمكذوب.

ولما يئس أعداء الإسلام وخصومه من النيل من النص القرآني؛ بإثبات تحريف فيه، عمدوا إلى المسلمين أنفسهم، فاحتالوا لإبعادهم عن ذلك النص المدقّق المحفوظ، فقامت دعوات، ومع الأسف أنها كانت

(١) Die summlung des Qurons 11, 93.

على ألسنة قوم من المسلمين أنفسهم تدعو إلى رسم الكتابة العربية بأحرف لاتينية، ولكن يقظة المسلمين الغيورين وقفت أمام هذه الدعوة بصمود وإيمان حتى كشفت نوايا هؤلاء، وأهدافهم السيئة في إبعادنا عن لغة القرآن، فاحتالوا مرة أخرة بالدعوة إلى التدوين والتأليف بالعامية، وبذلك نبتعد عن الفصحى، ويبتعدوا عن النصوص القرآنية، وذلك هو المراد الأساسي في عزل المسلمين عن لغة قرآنهم.

وكانت هذه الدعوات الهدامة تهدف إلى غايتين:

١ ـ تفريق المسلمين عامة، والعرب خاصة، بتفريقهم في الدين، وتفريقهم في اللغة، وتفريقهم في الثقافة، وقطع الطريق على توسع اللغة العربية المحتمل بين مسلمي العالم، حتى لا تتم وحدتهم الكاملة.

٢ ـ قطع ما بينهم وبين قديمهم، وجعل القرآن، والسُّنَّة، والتراث الإسلامي نوعاً من الطلاسم التي لا يعرفها إلا المختصون القلة، كما يعرف أحبار النصارى اللغة السريانية، أو اللاتينية، دون غيرهم.

إن هذه الدعوات الهدّامة قد تضل جيلاً من الشباب، ولكن الأمل في إنقاذ الجيل القادم يظل كبيراً ما دام القرآن حيّاً مقروءاً، وما دام الناس يتذوقون حلاوة أسلوبه، وجمال عبارته. أما هذه الدعوة الخطيرة فهي ترمي إلى قتل القرآن نفسه ـ وهيهات ـ والحكم عليه بأن يصبح أثراً ميتاً كأساطير الأولين، أو بأن يصبح أسلوبه عتيقاً بالياً بتحويل أذواق الأجيال الناشئة عنه، وتنشئتهم على تذوق ألوان أخرى من الأساليب المستجلبة من الغرب، في الوقت الذي نجح فيه اليهود في إحياء لغتهم العبرية الميتة، واتخاذها لغة للأدب والحياة، وما زال بعض المفتونين من العرب ينادون بأن اللغة العربية الفصيحة لغة ميتة، وينشرون في ذلك المقالات الطوال، المكتوبة (باللغة العربية الفصيحة) التي يتزعمون موتها، والتي يقرؤها أقل الناس حظاً في الصحف، فلا يغيب عنه شيء منها.

إن هذه الدعوات الهدامة التي تتجه إلى اللغة العربية تريد أن تفرق المجتمعين عليها بمختلف الحيل، والأساليب، تحت ستار من الغربة في الإصلاح، والتطوير لمسايرة الزمن. ويقولون: إن اللغات الأوربية قد تطورت، فيجب أن تتطور لغتنا كما تطورت لغاتهم. وهناك فرق بين «التطور» و«التطوير». تتطور اللغة بأن تفرض عليها قوانين قاهرة. هذا هو التطور، أما التطوير فهو سعي مفتعل إلى التطور، دون أن تكون له مبررات تستدعيه. والتطور لا يُسعى إليه، ولا يُصطنع، ولكنه يفرض نفسه، فلا نجد بداً من الخضوع له.

وليس الخطر الكبير في الدعوة إلى العامية، ولا في الدعوة إلى الحروف اللاتينية بمثل هذه الدعوات ظاهر الخطر، مكشوفاً للعيان، وأصحابها من مغفَّلي الهدامين.. ولكن الخطر الحقيقي هو في أنصاف الحلول. الخطر الحقيقي في الدعوات التي يتولاها خبثاء الهدامين، ممن يخفون أغراضهم الخطيرة، ويضعونها في أحب الصور إلى الناس، ولا يطمعون في كسب عاجل، ولا يطلبون انقلاباً كاملاً سريعاً، ولكنهم يقنعون بالتحول الهادئ الذي أشار إليه Gibb حين وصف تطور المجتمع الإسلامي المصري بأنه يسير سيراً هادئاً تدريجياً، لا يكاد يسترعي الانتباه.

الخطرون من خبثاء الهدامين هم الذين يزعمون أنهم مشفقون على العربية، وأنهم يحمونها من خطر الداعين إلى العامية، وإلى كتابتها باللاتينية؛ ولذلك فهم لا يطالبون إلا بتطعيمها بالعامية، ولا يطالبون بأكثر من تعديل بعض قواعدها، ولا يذهبون إلى استبدال الحروف اللاتينية بحروفها، ولكنهم يقترحون تغيير قواعد الإملاء. وهؤلاء هم أصحاب الحل الوسط. والمسألة عندنا لا تحتمل حلاً وسطاً.. فإما أن نتمسك بديننا، ووحدتنا، نتمسك بالعربية ـ كتابة، ولغة، ونحواً، وأدباً، وثقافة ـ وإما أن نسقط هذه الاعتبارات من حسابنا، وعند ذلك يستوي

أن يكون الذي نعدل عليه هو هذا أو ذاك مما يقترحون[1].

وأحب أن أنوه أن صاحب الاقتراح الوسط، أو الحل الوسط هو العضو الإنجليزي الموقر هـ. أ. ر. جب، الذي يقرر في كتابه (إلى أين يتجه الإسلام؟)، عند كلامه عن الوحدة الإسلامية، أن من أهم مظاهرها الحروف العربية التي تستعمل في سائر العالم الإسلامي، واللغة العربية التي هي لغته الثقافية الوحيدة، والاشتراك في كثير من الكلمات الاصطلاحية العربية الأصل[2].

وهذا ما قرره المستشرق الألماني كامفماير في شماتة أن تركيا لم تعد بلداً إسلامياً، فالدين لا يدرس في مدارسها، وليس مسموحاً بتدريس اللغتين العربية والفارسية في المدارس، ثم يقول: «إن قراءة القرآن العربي، وكتب الشريعة الإسلامية، قد أصبحت الآن مستحيلة بعد استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية»[3].

ويتساءل كامفماير، الأستاذ بجامعة برلين، الذي كتب مقال (مصر وغربي آسيا في الكتاب Whither Islam ص١٥٨ ـ ١٥٩): هل يستطيع الإسلام أن يستعيد وحدته الداخلية في ظل التجزئة السياسية القائمة، وتحت تأثير الآراء العصرية، والعلوم الغربية؟ وهل سيكون الإسلام عند ذلك عدواً؟ أم أنه سيكون صديقاً وحليفاً؟ أم أن الإسلام في سبيله إلى التفتت إلى وحدات قومية تعكس كل منها التأثيرات الأوربية على طريقتها الخاصة، وبأسلوبها المستقل؟. وقد أجاب الكاتب على هذه الأسئلة في ثلاث نقاط:

أولها: هي أهمية الكتلة العربية وخطورتها في نظرة.

وثانيها: هي أن أهم العوامل التي تستمد منها هذه الكتلة وحدتها

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ص٢٠.

(٢) ص٣٨٥ ـ د. محمد محمد حسين. (٣) المرجع السابق ص١٥٨ ـ ١٥٩.

هي: اشتراكها في اللغة الفصحى، واشتراكها في العناية بالتراث الإسلامي القديم، وتاريخه، وأدبه.

وثالثها: هي ما يستتر وراء كلامه من أنه يتمنى أن يحدث في مصر ما حدث في تركيا من قطع كل صلة بالماضي الإسلامي، واستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية.

ولكن الله الذي تكفل بحفظ الكتاب شاء أيضاً إبطال هذه الدعوات الهدامة؛ لنظل على صلة بلغة قرآننا، صلة تيسر فهمنا له، وفهمنا عنه، واستنباطنا منه، وبذلك تبقى لنا مقومات إسلامنا، فلا تتطلب إلا أن نطبق منهجه، ونحكم حياتنا بنصوصه وأصوله، وذلك هو لب ما ندعو إليه في كل لقاء إسلامي.

وهذا التمحيص والتدقيق العلمي جعل المسلمين يتفقون في المذاهب الأربعة إلى إخراج أحاديث ثابتة عن الرسول ﷺ، فما دام القرآن ثابتاً، ونصوصه صحيحة، والحديث المتواتر عن الرسول ﷺ أيضاً ثابتاً ومحققاً، وما زال في الإسلام رجال ثقات على مستوى كبير من الأمانة في البحث والتدقيق، إذاً فلا خوف على الإسلام، وأُصوله، وأحكامه الثابتة الصالحة لكل زمان ومكان، وبقي للفكر من حول الإسلام أن يتطور؛ لأن الفكر، بطبيعة الحال، تؤثر فيه الظروف المتباينة من عصر لعصر، والثقافات المختلفة، والاختلاط بالأمم، وغير ذلك.

وإنما كان التشريع الإسلامي صالحاً لكل زمان ومكان بحركة الفكر الإسلامي حوله، وتجددها، وحيويّتها، وبهذا تتضح لنا حقيقة مهمة نفرق فيها بين الإسلام، نظاماً، وبين الفكر حول الإسلام. و لا بد أن ننبه إلى أنه يجب ألا نطلب من الإسلام أن يخضع لواقع الحياة، بل ننظر إلى الواقع على ضوء الإسلام، فما كان منسجماً مع قانون الإسلام وتشريعه يكون للفكر دوره في التطبيق، والتجديد، والبحث فيه، وما كان متعارضاً

مع الإسلام أصلاً، فلا مجال للفكر الإسلامي للبحث فيه، أو تقنينه، أو تطويره؛ لأننا يجب ألا نخضع منهج السماء إلى رغبات أهل الأرض، فتصبح الأرض هي المشرعة، مدعين أننا اضطررنا إلى ذلك اضطراراً. فما بدأت فترة الانحطاط في العالم الإسلامي بأمور كبيرة، وإنما بدأت بأمور بسيطة، وتشويه لا يكاد يذكر، ثم تدرج الانحراف حتى وصلت الأمة الإسلامية إلى التفريط الذي أدى بها إلى الهاوية.

ومن هنا نحب أن ننبه إلى نتيجة خطيرة، وهي أن الدين لا يقبل التطور؛ ليلائم التقاليد والعادات في مختلف العصور والبيئات؛ لأن الناس إذا سلموا بمبدأ قبول الدين للتطور، ذهب كل منهم في ذلك مذهباً يخالف الآخر، بحسب ما يتلاءم مع ظروف بيئته، ثم لم يقفوا في هذا التطور عند حد. وهذا هو ما يهدف إليه الاستعمار، وهو تفتيت الوحدة الإسلامية، إذاً يصبح الإسلام مختلفاً في الجيل الواحد باختلاف الأقاليم، فنقول: إسلام مصري، وإسلام سعودي، وإسلام عراقي... إلخ.

وما دمنا قد انتهينا إلى هذه النتيجة، وهي أن الإسلام هو الدين الذي تتجلى فيه حقيقة التوازن بين ملكات النفس المختلفة؛ لأنه منهج الله الذي خلق هذه النفس، فإن أول ما يجب على المصلح العناية به هو أن يجلي مفهوم الإسلام هذا للعقول الناشئة تجلية تدفع عنه الجمود المتهم به، وترد عنه الانطلاق الذي ينحرف عنه، بل تجعلهم إيجابيين في محاولة إبراز الخصائص الأصلية لديننا، وتراثنا الذي يساير ركب التطور، مع المحافظة على أُسسه المتينة «فالإسلام ثابت الأصول، متحرك الفروع» وهو نظام عقيدة، ونظام حياة، صالح لكل زمان ومكان ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ويجب أن يلاحظ المصلح الظروف العصرية التي لا يمكن إغفالها، وذلك لأن المؤثرات في النفس المعاصرة قد تعددت وسائلها، وتنوعت أساليبها، فلم يعد البيت وحده قادراً على صياغة الروح

الإسلامية في نفوس ناشئته، ولم تعد المدرسة وحدها التي تصوغ المفاهيم والانطباعات؛ لأن وسائل الإعلام الأخرى ـ بلطف مداخلها، وزخارف عرضها، وفتنة مشوقاتها ـ تهدم كل ما يبنيه البيت، وما تصنعه المدرسة.

إذاً، فلا بد من مساندة كل وسائل الأعلام، حتى تتوحد الانطباعات، ولا تتذبذب المفاهيم، وبذلك نضمن تضافر وسائل العلاج، ويجب أيضاً أن لا يغيب عن بالنا أهمية القضاء على ازدواجية المفاهيم التعليمية، فلا نسمح، مثلاً، بتشويه التاريخ الإسلامي، حيث توضح أزهى عصوره ضمن العصور المظلمة في أوربا.. وهي التي يطلقون عليها اسم العصور الوسطى. وكذلك لا يصح أن يدرس التلميذ المسلم النظريات التي لم تصبح حقائق علمية، كنظرية النشوء، مثلاً، إلا ومعها من الردود الإسلامية ما يضمن له ثبات العقيدة؛ حتى لا يتشكك في أُصول دينه، ولا مسلمات عقائده.

مناهج التعليم

لعله من الأفضل، هنا، أن ننوِّه إلى حقيقة مهمة تتعلق بمفهوم التربية الإسلامية، هذه الحقيقة هي أن معظم المناهج الوضعية، إن لم تكن جميعها، تتفق على تعريف التربية بأنها «إعداد المواطن الصالح»، ثم تختلف هذه المناهج بعد ذلك بحسب ثقافة واضعيها، وأهدافهم في تحديد صفة هذا المواطن الصالح، وفكرة المواطنة في حد ذاتها في رأينا فكرة ضيقة؛ لأنها تحصر صاحبها في حدود ضيقة من الأرض، لكل شخص وطنه، ولكل وطن حدوده.

أما التربية الإسلامية، فإنها تسعى لتحقيق هدف أكبر، وغاية أعم، وهي (إعداد الإنسان الصالح). . الإنسان من حيث هو إنسان في كل زمان ومكان، لا من حيث هو مواطن في هذه البقعة من الأرض أو تلك، وهي بذلك تتناول الإنسان من جميع جوانبه الفكرية، والجسمية، والعاطفية، ولا تبنى جانباً على حساب الآخر، بل تعنى بجميع جوانبه؛ لتجعل منه الإنسان الصالح في كل زمان ومكان.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: ما الدور الذي حققته مناهج التربية الإسلامية في سبيل تحقيق هذه الغاية؟

إن الناظر إلى أحوال العالم الإسلامي عامة، وإلى الدراسات الدينية لأبناء المسلمين في مراحل التعليم المختلفة، يلمس أن هناك فرقاً كبيراً بين جوهرها الذي يبعث على الإشراق والأمل، وبين واقعها الممل الجاف، والذي يشعر أبناؤنا من خلاله أنهم يدرسون مواد بعيدة كل البعد عن واقع حياتهم المتحرك.

والحقيقة أن الخطط، والمناهج الدراسية، وطريقة إعداد المعلم الذي يدرِّس المواد الدينية، تحتاج كلها إلى إصلاح. إن عيباً رئيسياً من عيوب دراستنا الدينية أنها لا تزال تدرَّس بالطريقة نفسها التي كانت تدرَّس بها منذ قرون طويلة، وهذا لا يعني أننا نعيب طريقة السلف.. ولكن متطلبات الحياة، ومفاهيم وطرق التدريس تختلف من جيل إلى جيل. فمفاهيم طالب الأمس تختلف عن مفاهيم طالب اليوم، والشرك الذي كان بالأمس ـ شرك الجهميّة والمعطلة وما إليها ـ أصبح اليوم أنظمة اجتماعية، وسياسية، واقتصادية تحكم بغير ما أنزل الله، وصار نظريات علمية مزيّفة، تتحدث عن أصل الإنسان، والكون، والحياة، فتنسبها إلى غير إرادة الله؛ لأنها لا تدخل الله في حسابها ﷻ.

إننا، مع الأسف، نسيء تنظيم المواد الدينية ومناهجها في بعض مدارسنا؛ حين نحشو أذهان الطلاب بالكثير من النصوص والمواد بقصد إفادتهم، متجاهلين في ذلك تركيبهم السيكولوجي، وقدراتهم العقلية.. كما أن كثيراً من المواد التي يدرسونها، مع الأسف، بعيدة عن حاجاتهم المباشرة، وواقع حياتهم، وهذا ما يسبب لهم الحيرة، وكراهية المادة، ويحملهم على الاستظهار دون فهم.

ولا شك أن تعميق حب المادة في نفس الطالب أهم بكثير من تكديسها؛ لأنه متى أحبها فهمها، وتابعها ـ ولن يحبها إلا إذا وجد فيها اتصالاً بحياته، وتجاوباً مع واقعه ـ وعليه فيجب علينا أن نعرّفه بموقف الإسلام من قضايا الحياة الكبرى، وأن نكشف أمامه انحرافات الفكر الجاهلي المعاصر، وبذلك يمكن أن تحيا دراسة الدين، وتتحرك.

وتحقيق هذا المنهج لا يتحقق إلا بوجود المدرس المسلم الناجح؛ الذي يجعل من نفسه قدوة حسنة لأبنائه، ومن معلوماته مادة حيّة متصلة بمشاعر التلاميذ، ووجداناتهم، وأفكارهم، كما لا يتحقق أيضاً إلا

بوجود البيت الإسلامي الصحيح الذي يحقق تعاليم الإسلام في ذاتية أفراده، وفي أخلاقهم، وتعاملهم مع الآخرين.

ونود أن نستعرض بعضاً من أهم جوانب الحياة في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، التي أدّت بنا إلى الفشل لسوء تطبيقنا لمفهوم فلسفتها، ولعجزنا عن تفسيرها تفسيراً علمياً دقيقاً يتفق مع روح العصر الذي نعيش فيه، وعلى الرغم من تعدد هذه الجوانب، فإني لا أملك إلا أن أقتصر على أربعة رئيسية منها، وهي:

١ ـ الجانب الاعتقادي.

٢ ـ الجانب الاجتماعي.

٣ ـ الجانب الاقتصادي.

٤ ـ الجانب السياسي.

الجانب الاعتقادي

جاء الإسلام رسالة سماوية خالدة، هادفة إلى هداية البشر، وانتزاعهم من ظلمات الشرك، والجهل، والفساد، ودعوة إصلاحية متحررة من أغلال التقليد والجهالة، تدعو إلى رفض الوثنية، ونبذ الأوهام، ورفض سيطرة الأصنام، سواء أكانت بشراً أم جماداً، دعوة مشرقة تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وتطلب من الناس أن يستسلموا لله ﷻ في كل أُمورهم، فيكونوا مسلمين؛ لأن الإسلام هو أن تسلم وجهك لله سبحانه في كل أعمالك الروحية والمادية، وعلّم الإسلام الناس عبادة ربهم على بصيرة، ولم يطلب منهم الإيمان بمبادئ خرافية، ولم يقل لهم اعبدوا أشياء وهمية، بل كلٌّ ببرهان، وكل دعوة إلى عبادة معينة لها فلسفتها، ومغزاها الديني العلمي، وخاطب الإسلام الناس على أُسس علمية صحيحة، وكانت أول هذه المبادئ أنه خاطب الرسول الكريم في أول سورة أنزلت عليه بقوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

العلم وأبعاد الدعوة:

هكذا كانت الدعوة القرآنية إلى العلم.. متمثلاً في القراءة والكتابة، مع الخيوط الأولى لفجر الإسلام: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

وفي قوله سبحانه: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ إحاطة بآفاق العلوم جميعاً.. فكل ثقافة.. وكل معرفة.. وكل خبرة جديدة نافعة يكتسبها

الإنسان هي من هذا التعليم الإلهي للإنسان.. ومن هنا، فقد فتح الإسلام للإنسان سبيل المعرفة، وجلى أمامه آفاق العلم، وحثّه للتطلع إلى المزيد ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وتتابعت آيات الكتاب الكريم ترفع من شأن العلم، وتعلي مكانة العلماء، وتدفع الإنسان إلى مزيد من المعرفة والضياء.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

ولم ينوِّه الإسلام بشأن العلم، ولم يرفع مكانته إلا لأنه ضرورة للإيمان ذاته.. فليس الإيمان الصحيح إلا نوع من العلم، يقوم على أساس النظر السليم إلى الكون والحياة، محوطاً بالأدلة والحقائق العلمية.. فالعلم الصحيح وسيلة الهداية إلى الحق في كل مجال.. أما الجهل فهو باب الخرافة التي تقود إلى الضلال.

إن الكفر والشرك ليس إلا أوهاماً كاذبة، لا حجة لها ولا برهان، ولهذا كثيراً ما نجد في آيات الكتاب الكريم مطالبة للكافرين بالدليل، وتقريعهم بافتقارهم إلى العلم والبرهان.. يقول تبارك وتعالى:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

فالإلحاد والضلال ليسا إلا أهواء متبعة، وأوهاماً مقدسة، استولت على عقول ضعيفة، ونفوس شائهة: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ [الروم: ٢٩].

هكذا كانت صلة الإسلام بالعلم قوية منذ بزوغ فجره، وكانت دعوته للبشرية لتجعل العلم طريقاً إلى الحق، وباباً إلى الهداية والرشاد.

والقرآن يشير إلى أن أهل العلم الصحيح هم القادرون على

استجلاء آيات الله سبحانه، وفهم دلائل وجوده، وآثار حكمته؛ ولهذا كان لا بد للمسلم من قاعدة متينة من العلم النافع في أمر دينه، ودنياه.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقال سبحانه: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

وقال ﷻ: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨].

وفي ذلك توثيق للرابطة بين العلم بالكون على حقيقته.. وبين معرفة الله سبحانه، وهو الخلاق العليم.

فما نشأ الجحود والإنكار للحقيقة الكبرى في الكون، وهو وجود الحق تبارك وتعالى، وتفرده بالوحدانية والكمال، إلا عن جهل بقدر الخالق العظيم، وذهول عما ينبغي له من عبادة، وإسلام.

وحسبنا في بيان هذا المعنى قول الحق تبارك وتعالى:

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]!!

وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

فالتوحيد الحق، والإيمان الصحيح يدعم بالوقوف على حقائق الكون.. وتأمل نافع لآيات القدرة الإلهية التي أبدعت هذا الكون العظيم.. وتلك هي الخشية التي يذوق جلالها العلماء الذين نوَّه الكتاب الكريم بهم:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧ ـ ٢٨].

أما الجاحدون.. فهم الغافلون المعرضون عن آيات القدرة الباهرة المنبثقة في آفاق السموات والأرض.. الذين ينظرون إلى الظواهر نظرة

قاصرة، لا تربط بين الأسباب والمسببات.. فلا يصلون إلى شاطئ الأمان.. ولا يذوقون حلاوة الإيمان.

قال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥ ـ ١٠٦].

بذلك كان العلم أول قواعد الحركة الإسلامية، والتي أراد لها الله سبحانه أن تكون مبنية على أسس من المنطق الصحيح، والعلم المبين؛ ولذلك فقد رست دعائم تلك الدعوة، وعمّت مبادئها أنحاء المعمورة، وتنزَّه الإسلام الحنيف عن أن يدعو الناس إلى تقديس أيّ بشر مهما كانت صفته العلمية، أو الدينية، أو المالية، فتحرر الناس من رق العبودية التي ساقتهم إليها عوامل الجهل، والضلال، وخرافات الرهبان والأحبار؛ الذين كانوا يريدونها رهبانية ابتدعوها وما كتبت عليهم، وفي الوقت الذي كان فيه القساوسة مصدر بركة، ومصدر غفران، يتوسطون بينهم وبين الرب ﷻ جاء الإسلام ليقول للناس: إن الله لا يريد وساطة ولا وسيطاً، بل هو أقرب إليكم من حبل الوريد ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وبهذا القول، وبهذه الرحمة، وعلى أساس هذه البساطة المتناهية في المعاملة يدعو الله ﷻ ويشرح لهم نوع العلاقة التي يريد أن تربطهم به. نعم، هكذا يدعو الله عباده في منهج راق، وفكرة سامية رفيعة، ونهج الرسول الكريم هذا المنهج السماوي الكريم الذي اختاره الله لهذه الأمة، فلم يجعل من نفسه إلهاً، ولا قال للناس أنه يضمن لهم الجنة، أو هو الذي يرسلهم إلى النار، بل قال: إنه مبلغ رسالات ربه في أمانة، وفي صدق، وإنه أول متبع لهذا المنهج.

وكذلك دعا الإسلام بالحكمة، والموعظة الحسنة، وكذلك أيضاً تبعه الأتباع المؤمنون المخلصون، فآمنوا، وصدقوا، وشاركوا في الدعوة، لكن دون أن ينعزلوا عن الناس، ودون أن يتخذوا لأنفسهم مكانة خاصة، وكانوا يقيمون شعائر الله كلها ما استطاعوا إليها سبيلاً، ولم ينسوا أبداً نصيبهم من الدنيا، فكانوا يأكلون ويشربون كما يأكل الناس ويشربون، ويتزوجون كما يتزوج الناس؛ لأن قائدهم ومعلمهم كان كذلك فرداً من سائر البشر، وكانت الدعوة مرتكزة على أساس صحيح هو عبادة الله على هدى وبصيرة حتى يتشرب قلب المسلم بالإيمان الصحيح.

وشجع الإسلام أتباعه على أن يتفقهوا في الدين، وأن يبتعدوا عن متاهات الظنون التي قد تسوقهم إلى الضلال دون أن يشعروا؛ ولذلك فهو يخاطبهم باليقين، والبرهان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]. ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]. ثم يخاطب القرآن الكريم الناس على هذا المنهج، ويطلب إليهم أن يتفكروا في خلق الله، ويشرح لهم آياته الكريمة التي لا حدود لها، وهكذا جاء الإسلام مبنياً على أسس من الفكر، والعلم، والدعم بالبرهان، وطالب الناس أن يؤمنوا على أساس من الصدق، والبيّنة.

ولهذا السبب، وعلى أساس تلك التربية الإسلامية اختار الله الأمة الإسلامية لتكون خير أمة أخرجت للناس، ولم يكن الاختيار لمجرد كونهم عرباً، أو لأن الرسول من قريش، ولكن لأن المنهج الإسلامي منهج كامل من جميع الوجوه إن طبّقناه كنّا كذلك، فإذا ما فرَّطنا في هذا المنهج، وهذا ما نحذر منه المسلمين في كل مكان ـ فلن نكون بلا شك ـ تلك الأمة التي يباهي بها الرسول عليه الصلاة والسلام الأمم يوم القيامة.

فالإسلام اليوم لم يعد مطبقاً، ولا متبعاً، لا على الأسس التي جاء بها، ولا بالمفهوم الذي أراد له، اللَّهُمَّ إلا من رحم ربي.

ولقد قدَّس المسيحيون رهبانهم إلى حد أن جعلوهم الوسيط الأول بينهم وبين الله، ثم عمل هؤلاء القساوسة والرهبان على إقناع الناس بأنهم لهم منازل خاصة، وأنهم وهبوا أنفسهم لله، فلا يتزوجون، وعندما هدمت الكنائس فوجئ الناس بالعدد الضخم من جماجم الأطفال الضحايا الذين كانوا يقتلون بعد ولادتهم في الدير خشية من الفضيحة، فحرموا على أنفسهم ما أحل الله لهم.

إن المفروض في العلماء أن يتفقهوا في الدين على أساس من العلم، والبحث العلمي، ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. واختلط عليهم مفهوم الإسلام أو كاد.

ومن هنا فإن الأساس في جهاد العلماء المخلصين هو التفسير العلمي لحقيقة هذا الدين؛ بما يتفق مع ما يواجهه المسلمون من ظروف وأحداث، بعيداً عن الجمود والتعقيد، وأن يخاطبوا الناس في بساطة تتفق مع روح هذا العصر، مع المحافظة على جوهر الإسلام.

إن ما يواجهه المسلمون في هذا العصر من مشكلات، وتحديات، ومتاهات توجب إعادة النظر في كثير من المسائل على ضوء القرآن الكرم، وعلى أساس علمي يخاطب عقول الناس.

إن شباب اليوم يريد تفسيراً لما جدَّ في حياتهم المعاصرة؛ لأنهم يواجهون نوعاً جديداً من المشكلات المعقدة، ولا يتجرأ أن يسأل عنها خشية أن يتهم بالتحلل، والفسق، والفجور، وعظائم الأمور؛ ولذلك فهو يصمت، ويكبت جماح نفسه وعواطفه، وفي ذلك خطر كبير على إسلام مثل هؤلاء الشباب.

وقد بدأنا، ولا شك، ندرك أبعاد هذا الخطر، فعلينا أن نحاول إعادة دراسة مناهج الدين الإسلامي ليخرج علماؤنا بمفاهيم توضح الإسلام بصورة مشرقة في أسلوب يتفق مع الحياة التي نعيشها، وبأسلوب عصري مرغب.

إن مصادر التشريع الإسلامي تحقق حاجات الحياة في كل أحوالها، ولا يمكن أن تؤدي إلى الجمود، وإهمال مصالح البشر، فهذا التشريع يقوم على الكتاب والسُّنَّة الصحيحة أولاً، ثم على الإجماع والقياس، وهذه هي المصادر المقبولة عند جمهور الفقهاء، وهناك مصادر أخرى فرعية عرفتها بعض المذاهب الفقهية، كالمصالح المرسلة في المذهب المالكي، والاستحسان عند الأحناف، وقد كان الهدف هو متابعة خطوات الحياة في ضوء الدين الحنيف.

والثابت أن الفقه الإسلامي في عصوره الزاهرة لم يعرف الجمود، أو العزلة، بل كان يقدم للناس الحلول الصحيحة لما يطرأ في حياتهم من مشكلات، وما كان هناك فقهاء يمتنعون عن الفتوى بحجة أن ما يسألون عنه لم يرد فيه قول سابق.. بل كانوا يجتهدون وفق قواعد الشريعة الإسلامية.

كان الفقهاء يبذلون جهدهم في استنباط الأحكام الشرعية التي تفي بحاجات الحياة، وتنير للناس طريق السلوك الراشد، وكان وسيلتهم في ذلك الاجتهاد الذي اتّسعت به دائرة الفقه الإسلامي، ما جعل الشريعة الإسلامية إطاراً عاماً يحيط بحياة الأمة المسلمة، وبذلك أصبح الفقه الإسلامي نظاماً مفصلاً، جامعاً لجوانب العلاقات الإنسانية، شاملاً لصلة الفرد بربه سبحانه، وصلته بأسرته، ومجتمعه، وبالحياة في صورها كافة.

ولو الاجتهاد في الفقه الإسلامي ظل محتفظاً بمستواه العلمي والعملي في كل عصوره؛ لظلت صلة الشريعة الإسلامية بالحياة وثيقة،

ولما انتهينا إلى الحال الراهن الذي نبحث فيه عن رأي الشريعة في كثير من المسائل التي جدّت في المعاملات، وغيرها، فلا نجد الجواب الشافي..!

لماذا؟ لأن الفقه الإسلامي المدوّن في الكتب المعتمدة وقف في تطوره عندما سدّ باب الاجتهاد، في المذاهب الفقهية، وجاء من يسمون بالمتأخرين من الفقهاء، فاكتفوا بجمع أقوال السابقين، والالتزام بآرائهم دون نظر جديد.. يوافق ما جدّ في حياة الناس من مشكلات.

ولولا نفر من العلماء المجتهدين المصلحين كابن تيمية، وابن القيّم، والشوكاني، ومحمد بن عبد الوهاب؛ الذين دعوا إلى ترك التقليد، وإلى الرجوع إلى المنابع الأصلية.. لولا هذه الدعوات الإصلاحية الأصلية لتوقف الفكر الإسلامي الفقهي تماماً، ولعمّ التقليد والجمود.

وجزى الله الإمام الشوكاني خيراً، فقد تحدث عن الاجتهاد وضرورته في رسالته النافعة «القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد»، بما يثبت أن الاجتهاد واجب على كل من استوفى شروط المجتهد المقررة عند الفقهاء، وعلماء الأصول.

ومن قبل قال الإمام أحمد بن حنبل: «لا تقلدني ولا مالكاً.. ولا الشافعي ولا الثوري... وخذ من حيث أخذوا».

ومن هنا نرى أن سدّ باب الاجتهاد عند كثير من الفقهاء المتأخرين قد أدى إلى حرج شديد أصاب أوضاع الحياة في المجتمع الإسلامي المعاصر.. وجعلنا نعاني من تلك المشكلة التي أشرنا إليها فيما سبق.. وهي أن كثيراً من أنظمة الحياة الاجتماعية، والاقتصادية المعاصرة تحتاج إلى نظر فقهي مستمد من مصادر الشريعة الإسلامية، ولكن الفتاوى تختلف حولها ما بين محلل ومحرم.. وبعضهم يميل أكثر إلى القول

بالتحريم احتياطاً، ودون نظر إلى جوانب المشكلة، وآثارها في الحياة.

فهناك، مثلاً، أنظمة البنوك، والشركات، والقوانين التجارية، والتأمين، والسندات، والأوراق المالية، وغيرها من مسائل مشهورة يسأل الناس عن القول الفصل للفقه الإسلامي فيها.. فأحياناً يجدون قولاً بالإباحة المطلقة.. وأحياناً قولاً بالتحريم، وأحياناً توقفاً عن الجواب.

والأمر يحتاج إلى قيام مجمع فقهي يضم علماء المسلمين المجتهدين في كل قطر إسلامي، ليبحثوا هذه المسائل وغيرها في ضوء الأصول الإسلامية الثابتة، وبعيداً عن مجاراة الأهواء، أو التأثر بالظروف المحيطة، فمن قبل قال أئمة الفقهاء كلمتهم بإخلاص، وتجرد، وأداء لأمانة العلم على وجهها الصحيح، وصدق رسول الله ﷺ: «**شرّكم من باع دينه بدنياه، وأشرّ منه من باع دينه بدنيا غيره**».

وتكون مهمة هذا المجمع الفقهي أن يبادر إلى بحث كل جديد، وتسجيل كل ظاهرة تطرأ في جوانب المعاملات والأنظمة، ليعرضها على القواعد الإسلامية، ويقدم للناس الرأي الواضح فيها، حتى تظل الشريعة الإسلامية مهيمنة على أزمة الحياة، رائدة في مسيرة الإنسان المسلم.

إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، والقرآن دستور هذا المنهج، لا يحتاج إلى تبديل ولا تغيير، فهو كامل من كل الوجوه، لكن النقص في دراستنا، والقصور في تفكيرنا، وفي ابتعادنا عن الروح العلمية في فهمه، وفي تطبيقه.

والحرب التي تشنّ على الإسلام إنما تبدأ من الثغرة هذه، وهي أنه كان صالحاً لزمن معين (سابق)، وغير صالح ولا متفق مع القرن العشرين، وهم في حربهم هذه يستغلون تفسيرات وأحداث كانت عتيقة ومشوهة في تاريخ الإسلام، ولهذا فلا بد لنا من الصمود، ولكن بأساليب علمية، وتحليلات صحيحة لمفهوم الإسلام.

وإن نظرة واحدة إلى الدول الإسلامية اليوم تهزّ الإنسان المسلم، فمعظمها دول متخلفة، أو في سبيل النمو، وما بنا نقص في الرجال، ولا في أسباب التقدم، لكننا نتخبط في غير منهج، فلا نحن طبقنا الإسلام، ولا نحن قادرون على جلب شيء خير منه، بل كل يوم في وادٍ من تجارب الأنظمة والمبادئ التي لا تتفق مع واقع شعوبنا، ولا خلائقها، أو حتى طرقها التربوية، ومنهجها في الحياة.

والشباب المسلم نفسه يتحمل، بلا شك، مسؤولية كبرى، فقد جنح إلى الاتكالية في تعلم الدين الإسلامي، ولم تعد لديه رغبة كبيرة لقراءة الكتب الإسلامية، ومناقشتها، ودراستها دراسة علمية صحيحة، بل يريد من العلماء أن يشرحوا له الدين بصورة مختصرة جداً، وفي وقت سريع جداً، وبصورة مبسطة جداً أيضاً، ثم يثور على الطريقة التي يشرحون له بها هذه المفاهيم، دون أن يحاول أن يشارك هو في تفهّم هذا الدين.

وإن كان اللوم ليس عليه وحده، فالأسلوب الذي يقوم به الدين لهؤلاء الشباب ينبغي أن يكون مدروساً بطريقة صحيحة، وعلى أسس علمية، حيث يتسنى لهم معرفة حقيقة هذا الدين، ويأخذ بيدهم في سبيل عبادة الله على بصيرة.

وكأني بالناشئة، في كثير من الدول الإسلامية، يسألون عن مفاهيم معقدة تدرس لهم في الدروس الدينية، وغيرها، وينفرون بشدة منها، بل وقد يسخرون منها في بعض الأحيان، وما كان ذلك ما نريده لدروس الدين، ولكن الأمل معقود على حركة فكرية إسلامية تعم العالم الإسلامي، وتدعو إلى إيجاد الطريقة السليمة لتدريس هذه الدين، وتقديمه إلى الناس في صور مشوقة، فالوقت قد أزف، والدعوة واجبة ولا سيما أن غيرنا من الأمم قد سبقتنا في ميدان العلم والحضارة، وواجبنا أن نعمل بجد.. وصدق.. وعلى أساس متين، وبصيرة بالمنهج السماوي الكريم.

ولا شك أن ما يبعث الأمل في النفوس اليوم هذه الجهود الإسلامية الطيبة التي تبذل اليوم في مجال الفقه الإسلامي.. ولا سيما هذه الموسوعات الفقهية التي بدأت تظهر إلى الوجود، وتلك البحوث الجادة التي تجري في بعض الجامعات.. ومراكز البحث، ونسأل الله التوفيق.

الجانب الاقتصادي

تعاني المجتمعات الإسلامية المعاصرة من مشكلات اقتصادية تقف عقبة في وجه بلوغها مرحلة التطور المناسب لروح العصر، وإحرازها مكانة التقدم. . في عالم يعتمد على المادية البحتة، ولا يظفر فيه بالحياة الكريمة إلا المتقدمين.

ومن المؤسف أن كثيراً من هذه المجتمعات الإسلامية ـ إن لم تكن جميعاً ـ تدخل في دائرة ما يسمونه بالدول النامية، وهو تعبير مهذّب عن الضعف، والتخلف.

بينما يدل الاستقراء التاريخي أن المجتمعات الإسلامية في عصورها الزاهرة كانت في مكانة القيادة والقوامة في الجانب الاقتصادي، كما كانت في تلك المكانة في المجالات كافة.

لكن ضعف المسلمين منذ قرون في جانب الفكر والعلم، واكتفاءهم من دينهم في كثير من البيئات بالقشور والمظاهر، أدى إلى ترك زمام الحضارة أن يفلت من أيديهم، ويصبح في أيدي الماديين الذين لا يرون في الحياة إلا استخراجاً لخيرات الأرض، وكسباً يتحول إلى استمتاع، وتهالك على اللذات.

ومن عجب أن أعداء الأمة الإسلامية استطاعوا ـ في غفلة منها ـ أن يعمّقوا مسافة التخلف بين المسلمين وبين ركب الحياة المتقدمة، فسبقوهم آماداً بعيدة، ليلقوا في روعهم بعد ذلك أن هذا التخلف الذي أصابهم إنما هو ثمرة لتمسكهم بالإسلام، ويزينوا لهم أنهم إن أرادوا

التقدم الحضاري فليتخذوا دينهم وراءهم ظهرياً، ولينطلقوا في ركب الحضارة المادية بخيرها وشرّها.

وهذا للأسف ـ ما تدعو إليه بين حين وآخر ـ أقلام، وتنطلق به ألسنة في بعض المجتمعات الإسلامية.. يقولون: إن تقدمنا الاقتصادي والحضاري مشروط باتباعنا سبيل الغرب في الصغير والكبير، وفي السيئ والحسن سواء بسواء.

وتلك مغالطة تكشف زيفها حقائق التاريخ، ويأباها منطق العقل، فما كان التقدم الاقتصادي في الغرب وليد إلحاد، أو نتيجة فساد خلقي، بل كان بالسير وفق منهج العلم، الذي اقتبسه الغرب من جوهر حضارتنا الإسلامية، والذي نما في أوربا على فترات، ولكن جذوته الأولى إنما كانت من مشعل الحضارة الإسلامية الهادية.

ومن هنا فإننا نرى أن معالجة الأدواء الاقتصادية في المجتمعات الإسلامية المعاصرة أمر ضروري، لصيانة العقيدة، ولاتقاء الفتنة، حتى لا تظل مسافة التخلف بيننا وبين القوم في مجال الاقتصاد والتقدم بعيدة، وفينا عقول ومواهب، وفي بلادنا طاقات وثروات تعيننا ـ بفضل الله ـ على تحقيق هذه الغاية، بشرط أن نصل إلى أعماق الداء، وأن نرسم خطة الإصلاح والنهضة باستقصاء وشمول، بعيداً عن الارتجال.

* * *

«وأول ما ننبِّه إليه في أمر الإصلاح الاقتصادي في المجتمع الإسلامي المعاصر أن يقوم هذا الإصلاح على أساس واضح من المذهب الاقتصادي الإسلامي المحدد بالمقاصد الشرعية.

إذ ليس للمسلمين أن يتجهوا فيه وجهة لا تتفق وهذه المقاصد، ومن ثم فإن السياسة الاقتصادية الإسلامية مقيّدة أيضاً بهذا الأساس»[1].

(١) د. مصطفى كمال وصفي، المشروعية في النظام الإسلامي، القاهرة، ١٣٩٤هـ.

ولهذا المذهب الاقتصادي الإسلامي دعائمه القوية، وملامحه التي تميزه عن غيره، مما لا نملك هنا أن نفيض في بحثه، أو استقصائه، ولكنا نشير بإيجاز إلى أن هذا النظام يختلف عن النظم السائدة في الشرق والغرب، «ويمكن وصف هذا المذهب بأنه حرٌّ بلا فردية، وجماعي مع المحافظة على الكيان الفردي» فهو مذهب حرّ يفترض عدم تدخل الدولة، وإن كان لا يأباه، إذا دعت المصلحة الشرعية لذلك، فإن الفرد هو العامل الأول في هذا الاقتصاد، وعليه أن يحقق المرافق العامة، وأن يقوم بها. وأما الدولة فوظائفها محدودة.. ولكن هذه الحرية التي تتطلب إطلاق الجهود الفردية لا تجعل هذا النظام يقترب من نظم الفردية، بل يظل جماعي الصبغة؛ لأن الفرد في الجماعة الإسلامية إنما يعمل لأداء وظيفة اجتماعية، وليس لصالح نفسه»[1].

فالمذهب الاقتصادي الإسلامي يقوم على المنهج الوسط بين النظام الرأسمالي الذي يكون فيه الفرد هو المالك الوحيد لما يكتسب، ولا حق فيه لغيره، وله أن يتصرف فيه وفق ما يشاء ويرضى. وبين النظام الشيوعي الذي يجعل وسائل الإنتاج كلها مشتركة بين أفراد المجتمع، ولا حق للأفراد، بصفتهم الفردية أن يملكوها، ويتصرفوا فيها حسب رغباتهم. فالرأسمالية والشيوعية على طرفي نقيض: إن الرأسمالية وإن كانت تمنح الأفراد حريتهم الشخصية، وحقوقهم الفطرية، فإنه ليس في مبادئها ونظرياتها شيء يبعث الأفراد على القيام بخدمة مصالح المجتمع المشتركة، ويجبرهم على ذلك الحاجة إجباراً، بل هي تنشئ فيهم عقلية تحبب إليهم ذواتهم، ونحملهم على محاربة مصالح المجتمع في سبيل مصالحهم الشخصية.

والشيوعية حين زعمت أنها تريد أن تعالج هذه المفسدة جردت

---

(١) المرجع السابق نفسه.

الأفراد من الملكية الشخصية، وجعلتهم خدّاماً عاملين للمجتمع، فحاربت بذلك الفطرة الإنسانية، وقضت على الباعث الحقيقي على الجدّ والاجتهاد عند الأفراد، وذلك أن الذي يبعث الفرد على استنفاد قوته في السعي، والجد في مضمار التمدن والاقتصاد، إن هو في الحقيقة، إلّا مصلحته الشخصية.

أما الإسلام فيقيم بين هذين النظامين الاقتصاديين المتطرفين نظاماً معتدلاً، أجمل ما فيه من الأصول والمبادئ أن يعطي الشخص حقوقه الفطرية والشخصية كلها بطريق لا يختل به التوازن في توزيع الثروة، فهو في جانب يمنح الفرد حقه في الملكية الشخصية، وحقه في التصرف في ماله، وفي الجانب الآخر يقيد كل حق من هذه الحقوق بقيود خلقية من داخله، وقيود قانونية من خارجه، حتى لا تجتمع موارد الثروة في يد فئة قليلة، بل تبقى متبادلة بين مختلف الأفراد.

فنظرية الإسلام الاقتصادية، بكلمات مختصرة، هي أن الرابطة بين المصلحة الفردية والمصلحة الجماعية وثيقة من حيث فطرتهما، فمن الواجب أن تكون بينهما الموافقة والمعاونة، لا المزاحمة والمصارعة[1].

فالمنهج الإسلامي يقوم على أساس أن الإنسان مادة وروح، ولئن أردنا السعادة، فلن يكون إلا بإيجاد التوازن بين هذين العنصرين، والمادة ليست إلا وعاء الروح في الحياة الدنيا، والروح من أمر الله سبيل الشعور بالمعنويات بما في ذلك السعادة، ومظهرها التسامي إلى صفات الكمال، ومتطلبها الاستعلاء المعنوي.

ومن هنا فالنظرية الإسلامية تقوم على ركيزتين هما:

١ ـ إشباع الرغائب الحسية، حيث لا يكون ذلك على حساب متطلبات الإشباع الروحي.

---

(١) أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة، للمودودي، ص١٨.

٢ ـ إشباع الرغائب الروحية في الوقت نفسه.

وهذه الركائز إنما تهدف إلى إسعاد الفرد، وتوفير الرفاهية، وليست الرفاهية مجرد استمتاع مادي بريء أم غير بريء، وإنما الرفاهية الحقة هي أن يتمتع المسلم بالمال الحلال في الوجه الحلال، وفي أن تكون المادة موضوع الاستمتاع مسخّرة لغرض من الأغراض المنسجمة مع المثل الإسلامي الأعلى.

وهذا الاستمتاع المادي بهذه الصورة المحدودة، يحتم أن يكون الاستمتاع لصالح الإنسانية، والخير البشري، فلا نفع في استمتاع فردي يعود على الغير بالضرر والأذى، ذلك أن الإسلام ينظر إلى البشرية عامة ويخاطب الناس كافة. فكل نظام يضر المجتمع ـ وإن انتفع به بعض الأفراد ـ نظام يتنافى مع الفكرة الإسلامية، والعقيدة الصحيحة[١].

وهكذا نرى المنهج الإسلامي يسعى إلى خلق إنسان متوازن في فرديته، ومتوازن في ميله إلى الجماعة، وتعاونه معها، وهو يصل إلى ذلك بوسائل شتى، فيصل قلب الفرد بالله في عبادة خاشعة، ومناجاة رائعة، تملأ القلب حباً لله، وخضوعاً له، وإذعاناً لحكمته.. وتنمو بذلك الشخصية الاستقلالية التي لا تعرف الأثرة البغيضة، فإذا الفرد بهذه الروح إنسان يحس بمسؤوليته الكبرى تجاه الجماعة، فلا ينغلق على نفسه؛ لأن من ينبوع الإيمان، وشعور المسؤولية تنبثق الروح الجماعية، فإذا القلب الذي ربّاه الإيمان، وسيطرت عليه المسؤولية، مصدر الحب، والرحمة، والإخلاص، والوفاء، يرتبط بالجماعة أوثق ارتباط، يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويهتم بأمر المسلمين، ويسعى في مصالحهم، ويؤثرهم على نفسه، وينصح لهم، ويتعاون معهم.

وبهذا صاغ الإسلام دين الفطرة هاتين النزعتين الأصليتين في هذه

---

(١) محمود أبو السعود، خطوط رئيسية في الاقتصاد الإسلامي، ص١٣.

الفطرة البشرية، هذه الصياغة المحكمة الرائعة النافعة، فكان منهجه بذلك منهج الخير، والاستقامة، والطمأنينة، والسلام.. من حيث ضلت بالمنحرفين عن هذا المنهج السبل، وزلت بهم الأقدام، وانتهوا إلى ذلك الشر العاصف، وآلوا إلى ما هم فيه من صراع، وخصام.

ولكن المؤسف أن تسارع بعض المجتمعات الإسلامية إلى اقتباس هذا النظام أو ذاك من الأنظمة الاقتصادية الشائعة في العالم اليوم، دون عرضه على مقاييس النظام الاقتصادي الإسلامي، ودون نظر إلى ارتباطه بدعائم فكرية تخالف الأسس الفكرية والروحية؛ التي يقوم عليها نظام الإسلام الشامل.

ولعل من المناسب هنا أن ننبّه إلى ضرورة إبراز علم الاقتصاد الإسلامي في الجامعات العربية والإسلامية، كعلم مستقل له منهجه الواضح، وله رواسبه وتفاصيله العلمية، قصداً إلى معالجة الأوضاع الواقعية في المجتمع الإسلامي، بعيداً عن النزعة الخطابية والعاطفية التاريخية التي يكتب بها الكثيرون ممن عرضوا لهذا الموضوع.

وتعدّ المبادرة التي بدأت بها جامعة الملك عبد العزيز في المملكة العربية السعودية في الدعوة إلى مؤتمر للاقتصاد الإسلامي هي خطوة موفقة.. حيث جمعت لها صفوة من رجال الاقتصاد الإسلامي لمناقشة الموضوع بالتفصيل.. واستعراض الأبحاث المختلفة، وجمع شمل المهتمين بهذا العلم.. ودعم الأبحاث فيه.. ونسأل الله أن توفق بقية الجامعات في العالم الإسلامي إلى مزيد من هذا العمل الطيب.

* * *

فإذا فرغنا من أمر المنهج الذي ينبغي أن يقوم على أساسه الاقتصاد الإسلامي المعاصر، فلا بد بعد ذلك من معالجة مشكلة ضعف الروابط الاقتصادية بين البلدان الإسلامية بصفة عامة، إذ إن كثيراً من هذه البلاد الإسلامية تقيم أوثق الروابط بين هذه الكتلة، أو تلك من كتل

الحضارة الغربية المادية بألوانها المتعددة، دون أن تعني بسؤال نفسها: ماذا تستطيع أن تستفيد من بلد إسلامي آخر، أو تفيده إيّاه؟

مع أننا لو نظرنا إلى الأوضاع الاقتصادية في العالم الإسلامي جملة لوجدنا حل مشكلاتها في التعاون فيما بينها.. فبعضها يملك الموارد، ولكنه لا يملك الكثير من الخبرات الفنية، وبعضها الآخر يملك الكثير منها، وبعضها يشكو من ازدياد السكان، والبعض الآخر يشكو من قلة الأيدي العاملة، وبعضها لا يجد أسواقاً لتصدير منتجاته، والبعض الآخر لا يجد أسواقاً يستورد منها كل حاجياته، وهكذا نجد أنه لو درست المشكلات الاقتصادية للعالم الإسلامي جملة، لرأينا حلها في مزيد من التعاون والتضامن بين بلدان هذا العالم المترامي الأطراف.

* * *

وجملة القول: إن المشكلة الاقتصادية في العالم الإسلامي اليوم لا تنفك عن بقية المشكلات الأخرى، فهي مرتبطة بالعقائد، والمثل، والأفكار، كما هي مرتبطة بنظم التعليم، وبأوضاع المجتمع.. ولا بدّ من بحثها بعمق، والوصول إلى جذورها، وتحديد الهدف الذي ينبغي التوجه نحوه.

أو نرى أن غاية هذا الإصلاح الاقتصادي، ليست مجرد تحقيق الرفاهية، وزيادة دخل الأفراد فحسب، وإنما الغاية البعيدة هي تحقيق التقدم الشامل لأوضاع المجتمع الإسلامي؛ مما ينعكس على قوة الأمة الإسلامية، وصلابة عودها في صراعها لقوى الإلحاد، والبغي.

ولا ينبغي أن تظل المجتمعات الإسلامية عالة على غيرها من الأمم، في طعامها الذي تطعمه، ولباسها الذي تلبسه، وسلاحها الذي تدافع به أعداء الحق والدين.

وقد أدركت الأمة الإسلامية هذه الحقيقة، وتجلّى ذلك في تلك الوقفة الصلبة التي جعلت التعاون مع الدول الصناعية بإمدادها بما

تحتاجه من موارد العالم العربي مشروطاً بأن تقدم هذه الدول للعرب والمسلمين ما يحتاجون إليه من خبرات فنيّة، وخامات صناعية، وآلات متقدمة، وأسلحة متطورة.

وهناك خطوة أخرى تستحق الاحتفاء بها، وهي تلك الدعوة إلى قيام صناعة عربية للأسلحة، تحقق لهذه الأمة عزّتها، وتحفظ كرامتها، وتقيها شرّ الانقياد لأعدائها، أو الارتباط بعجلتهم.

إذا انتقلنا إلى الحديث عن مدى ما تحققه الدراسات العلمية من فوائد على نطاق الاقتصاد العربي والإسلامي عامة، فعلى الرغم من حساسية الموضوع، وحجم البحث الذي لا بد أن يجري عليه، والذي قد يحتاج إلى كتاب، أو موسم ثقافي كامل لشرحه، فإننا نحس بأن هناك بعضاً من هذه الدول تملك الأيدي العاملة، وأخرى الثروات الطبيعية، وثالثة لديها الخبرة الفنية متوافرة، ورابعة لديها رأس المال اللازم لدعم تقدمنا الصناعي، فلو أن هناك دراسات علمية دقيقة تجري في الجامعات، ومرافق البحث لدراسة إمكانية التعاون الاقتصادي الكامل بين هذه الدول، فإن ذلك قد يؤدي إلى نتائج مثمرة ونافعة. وأنا في هذا لا أدعو أبداً إلى عدم التعامل مع الأجانب، وقطع علاقاتنا بهم؛ لأننا ـ بلا شك ـ في مجموعنا نحتاج إلى خبرتهم، وإلى التعاون معهم في كثير من المجالات، كما أن ذلك لا يمنع تعاملنا بالطريقة نفسها معهم على أسس علمية صحيحة.

أما على النطاق العالمي فإننا نرى دولاً كبيرة مثل أمريكا، وغيرها، تسعى جاهدة إلى دفع المبالغ الكبيرة للجامعات، وغيرها من مراكز البحث لإجراء دراسات وبحوث على طرق تحسين أوضاعها الاقتصادية، وهي تحاول جاهدة تنويع مصادر دخلها، وزيادة هذه المصادر على أن يكون ذاك بطرق تحمي القطاعات المختلفة.

الجانب الاجتماعي

ونود في هذا المقام أن نشير إلى جوانب ضعف كثيرة، وعلل وأمراض اجتماعية أصابت مجتمعنا الإسلامي في كثير من بيئاته، وهي كذلك ما تزال تسري، وتتأصل فيه دون أن نعيرها اهتماماً، أو نحاول دراستها لإيجاد حلول لمثل هذه المشكلات.

نظام تكوين الأسرة:

إن المشكلات التي تعاني منها الأسرة المسلمة في مجتمعنا المعاصر، تعود أولاً إلى قلة الوعي بالأساس الذي يبني الإسلام الأسرة عليه، والغايات التي يرتجيها من قيامها.. ثم إلى تأثر المجتمعات الإسلامية المعاصرة بتيار التقليد لقشور الحضارة الغربية، والشغف بمظاهر الترف، والحرص على الكماليات.

ولو أبصر المسلمون جيداً حقيقة الدور الذي تقوم به الأسرة المسلمة في مثاليتها، وأصالتها، لوفروا لها كل الدعائم القوية، ولحرصوا على تماسكها وقوتها، ولرأوها ذات وظيفة اجتماعية تعود بالقوة والتماسك على المجتمع كله.

لذا سنعرض هنا بإيجاز لأهم مشكلات الأسرة في مجتمعنا الإسلامي المعاصر.. راجين أن تتضافر جهود رجال الاجتماع والاقتصاد، والدعوة على وضع الحلول العملية الناجحة لتلك المشكلات وغيرها التي تهدد سلامة هذا البناء الشامخ؛ الذي أقامه الإسلام للأسرة منذ أربعة عشر قرناً من الزمان.

المشكلة الأولى: الاختيار في الزوجية:

إن الإسلام لم يترك المسلم لهواه حين يرغب في تكوين أسرة، واختيار زوجة له تشاركه أعباء حياته، بل يحيطه بالإرشاد والتوجيه؛ لأن كيان الأسرة كله يعتمد على حسن التصرف في تلك اللحظة الدقيقة، فإذا كان الاختيار قائماً على أسس دينية، وقيم إسلامية فاضلة، فإن بناء الأسرة يعتمد على أساس متين، وإلا.. كان ضعيفاً لا يستطيع أن يثبت أمام الأعاصير التي تعصف به.

وقد كانت مقاييس الاختيار في الزواج واضحة تمام الوضوح في أجيال الأمة الإسلامية الأولى، حيث استمدوها من القرآن الكريم، ومن السُّنَّة المطهرّة، ففي القرآن يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وفي السُّنَّة جاء قوله ﷺ فيما رواه البخاري:

«تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين، تربت يداك».

وكان اعتبار الدين مقياساً أساسياً في اختيار الزوجة، حيث يمثل عنصر الأمان في تكوين الأسرة، إذ إن الزوجة أم المستقبل، هي التي تؤمن على تنشئة الجيل الجديد.. وبقدر إيمانها، وصلاحها، وتقواها، يكون إيمان هذا الجيل، واستقامته على طريق الحق.

أما اليوم.. فإن الاعتبار الغالب في اختيار الزوجة في كثير من البيئات الإسلامية، قد ابتعد عن هذا المقياس الصادق.. فأصبح النظر متجهاً إلى غايات أخرى تتعلق بغرض الحياة الدنيا، تستهدف المنافع العاجلة، أو الجانب المادي.. ولا تنظر إلى مستقبل أجيال هذه الأمة المسلمة. وكذلك الحال بالنسبة لاختيار الزوج، من جانب والد الفتاة، فإن النظر كثيراً ما يتجه إلى ما يحوزه من حطام الدنيا، وإن كان فقيراً في

جانب الدين والأمانة!! فمن فعل هذا فقد جهل قدر الحياة، وحسبها مالاً يقتنى، وترفاً يوفر لحواس البدن ما تشتهي. وذلك انحراف عن سنن الأشياء، واتجاه بالزواج إلى غير ما شرع له.

فمن راح ينشد الغنى فيمن يخطبها فقد تطغى عليه بمالها، فيذل من حيث أراد الرفعة؛ ولذا يقول عليه الصلاة والسلام: «**لا تتزوجوا النساء لأموالهن، فعسى أموالهن أن تطغيهن**». رواه ابن ماجه، والبيهقي، والبزار.

ومنهم من فتنه الجاه، يجبر به نقصاً، أو يرفع خسيسه، فراح يتحراه شرطاً فيمن يتزوجها.. وفي هذا وثنية تفسد النية، وتعالج العلة بجرثومة الداء، فلا يزيد الجاه المستعار إلا مقتاً، وذلة، وفيه يقول ﷺ: «**من تزوج امرأة لحسبها لم يزده الله إلا دناءة**».

ومنهم من كانت همته لذة الحياة، فطلب الجمال فيمن يتزوجها فقط، وذلك إهدار لمعنى الجمال الحق، فالمرأة إنسان، وأجمل ما في الإنسان إنسانيته؛ أي: دينه، وخلقه، وصفاته المحبّبة، فإذا أوتيت حظها من ذلك فقد أوتيت حظها من الجمال الحق؛ ولذا يقول عليه الصلاة والسلام لما جاءه مَنْ يسأل عمن يتزوج: «**اظفر بذات الدين، تربت يداك**». رواه أبو داود، والنسائي.

وما دام الزواج هو اقتران صفات بصفات، فأساس قبول من جاء يخطب المرأة أو رفضه، يجب أن يكون هو الأخلاق، والدين.

ومن التعقيد، بل من القصور التي تأباها السنن، ولا تستقر عليها الأوضاع، أن ندع تقدير الدين والخلق إلى ما عداهما من أعراض الغنى، والجاه، والمنصب، والجنس، واللون، ونحوه، فهو إنسان وكفى.. وحظه من الإنسانية هو الذي يحدد كفاءته لمن جاء يخطبها.

ولقد وضع الإسلام الحكيم أساس هذه المفاضلة الإنسانية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وعلى هذا فمن

كان ذا خلق جميل، وثقافة عالية، ودين عميق، وشخصية محمودة، فهو كفء لأفضل امرأة من أي طبقة، ومن أي جنس، ومن أي لون.

وفي مستوى هذا الأفق الرفيع يقول رسول الله ﷺ: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه، فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض، وفساد كبير**» رواه الترمذي.

فإذا نجحت التربية الدينية في المجتمع الإسلامي المعاصر في أن تجعل هذه القيم إسلامية خالصة.. وأن تصبغ هذه المقاييس بالصبغة المثالية التي يبتغيها الإسلام، فإن الأفراد سينظرون إلى كل أوضاع الحياة، ومنها جانب الأسرة بمنظار الإسلام وحده.

المشكلة الثانية: العقبات الاقتصادية في بناء الأسرة:

وهي أيضاً مشكلة تسبّب شقاء الشباب، وتعقّد مسالك الحياة أمامهم، فحين يرغب الشاب المسلم في إحصان نفسه، واستكمال تنظيم حياته الاجتماعية، والإسهام في حمل أمانة المجتمع، يفاجأ بأن العبء ثقيل، والتكاليف باهظة، كل هذا من أجل طقوس شكلية، أو تقاليد بالية. إن الصداق الذي يدفعه الزوج لزوجته، وإن كان ركناً من أركان الزواج، وحقاً خالصاً لها، إلا أنه من جهة النظر الإسلامية ليس ثمناً للمرأة؛ لأن المرأة ليست سلعة تباع وتشترى، ومن هنا فلا تعدّ المغالاة فيه فضيلة، ولا مزيّة توجب المباهاة.

فالإسلام ينظر إلى هذا الصداق على أنه رمز لتقدير المرأة وتكريمها، ولهذا لم يحدد قيمته، ولم يعيِّن درجاته.

وفي كتب السنن أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب الناس فقال: «لا تغلوا صداق النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا، أو تقوى في الآخرة، لكان أولاكم بها النبي ﷺ، ما أصدق رسول الله امرأة من نسائه، ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية».

وقد كان الرسول الكريم ﷺ أُسوة حسنة لأمته في هذا المجال، حتى ينظر المسلمون، في كل أجيالهم، إلى مسألة الصداق نظرة واقعية، وحتى لا يكون هذا الصداق عقبة في تكوين الأسرة المسلمة.

بل إن الرسول ﷺ قد زوَّج ابنته فاطمة على درع.. فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما قال:

«لمّا تزوج عليّ فاطمة قال رسول الله ﷺ: أعطها شيئاً، قال: ما عندي شيء، قال: أين درعك الحطمية؟ قال: هي عندي. قال: فأعطها إياها».

ولذا نريد لفت أنظار المسلمين في مختلف البيئات إلى أن الواجب على كل من يملك من هذا الشأن شيئاً، أن يسهم في تيسير إقامة الأسرة المسلمة على دعائمها الفاضلة، فإن من جناية الحضارة الغربية المادية على كثير من مجتمعاتنا المسلمة: أن أصبح باب الحلال المشروع ـ وهو الزواج ـ مغلقاً أمام شباب الأمة الصالح؛ الذي يبتغي إحصان نفسه، ومقاومة نزعات الشيطان، يهوله ما يطالب به من تكاليف باهظة، وما يوضع أمامه من عقبات مادية عليه أن يجتازها واحدة إثر الأخرى.

فما دمنا نؤمن للأسرة وظيفة اجتماعية مهمة، فلا بد من التواصي بالتراحم، وتقدير الميزات الخلقية والمواهب النفسية والعلمية، بدلاً من التعلق بالحطام الفاني، أو الحرص على النعيم الزائل.

ويتصل بمشكلة المغالاة في الصداق ـ التي تمثل عقبة في وجه تكوين الأسرة المسلمة ـ مشكلة المغالاة في جهاز الزوجية، ولو أن المسلمين ساروا على نهج الإسلام في النظر إلى الحياة، ولم يتمسكوا بالتقاليد؛ التي لا أساس لها من الإسلام، لما تعقّد بناء الأسرة على النحو المشاهد في المجتمع الإسلامي.

إن سعادة الأسرة لا تتوقف على الترف والتكالف؛ لأن وظائف

الأسرة الروحية، والنفسية، والاجتماعية لا تعتمد أساساً على الحرص على الزينة، والمباهاة، فليس الحساب للمظاهر، والأشكال، ولكن للحقائق، والأعمال، والمقياس الصحيح هو قوله تعالى:

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧].

أما محاولة الظهور بمظهر أعلى، أو تقليد صاحب الدخل المحدود لمن هو أوسع منه دخلاً، فهذا ما يسبب المشكلات الاقتصادية، ومما يقف عقبة في سبيل تيسير بناء الأسرة، فخير الجهاز ما التزم فيه الناس يسر المؤونة، واجتنبوا فيه التزيد على ما تدعو الحاجة، فهو أرضى لله ورسوله، وأحفظ للقلوب من أن يدخلها سم الاختيال.

ثم ننتقل إلى مشكلة اجتماعية تتعلق بنظام الأسرة.

المشكلة الثالثة: تعدد الزوجات:

وما كان لهذه المشكلة أن تكون في المجتمع المسلم لو أن الأفراد في هذا المجتمع التزموا مبادئ دينهم المثلى في كل علاقاتهم، وأوضاع حياتهم، فالأصل في إباحة تعدد الزوجات في الإسلام إلى أربع.. أن يكون حلاً لمشكلة.. لا أن يكون مشكلة في ذاته.. فالتعدد رخصة حكيمة أباحها الدين الحنيف؛ لتكون علاجاً لمشكلات اجتماعية خطيرة.. فبدلاً من تزييف العلاقات، أو تجميد نظام الأسرة، وجعله شكلياً فحسب.. ينظر الإسلام بعمق إلى ما يطرأ على الحياة الزوجية ذاتها من مرض الزوجة، أو عقمها.. أو عدم وفائها بما تتطلبه حياة الأسرة من تبعات.. وقد لا يكون لها عائل.. وقد تكون محتاجة إلى الرعاية، والكفالة.. فهنا يأتي تعدد الزوجات حلاً لهذه الأوضاع الاجتماعية الخطيرة.. ودواء لأدواء معضلة.. كذلك ينظر الإسلام إلى ما يطرأ على أوضاع المجتمع نفسه.. فقد تأتي فترات في التاريخ يزداد

فيها عدد النساء زيادة ملحوظة عن عدد الرجال، وقد ينشأ ذلك عن الحروب الطاحنة، أو غيرها من النوازل، فهنا يكون التعدد حلاً وسطاً لحفظ المجتمع كله من الأمراض الاجتماعية؛ التي نشهدها في المجتمعات المعاصرة التي تحرّم أنظمتها تعدد الزوجات.

وقد انطلقت أصوات كثير من المصلحين في تلك المجتمعات (خاصة عقب الحرب العالمية الثانية؛ التي خلفت أعداداً هائلة من الأرامل، والتي نقصت فيها أعداد الرجال بالنسبة إلى أعداء النساء) تنادي بالأخذ بنظام تعدد الزوجات حلاً لكثير من المشكلات المعقدة، فقد أوصى مؤتمر الشباب العالمي بمدينة «ميونيخ» بألمانيا سنة (١٩٤٨م) بتعدد الزوجات حلاً لمشكلة زيادة عدد النساء بألمانيا أضعافاً مضاعفة عن عدد الرجال بعد الحرب.

وفي سنة (١٩٤٩م) طالب أهالي مدينة (بون) عاصمة ألمانيا الغربية أن ينص الدستور على إباحة تعدد الزوجات.

هذا في الوقت الذي ارتفعت فيه صيحات المفتونين بمادية الغرب، في بعض مجتمعاتنا العربية الإسلامية تنادي بنقيض ذلك، وتطالب بحظر تعدد الزوجات إنقاذاً للمجتمع الإسلامي المعاصر من شرور هذا التعدد، وخطاياه!

من العجب العجاب أن ترتفع هذه الأصوات منددة بتعدد الزوجات، ولا ترتفع بكلمة استنكار واحدة؛ لما بدأ يتسلل إلى أوساطنا من عادات الغرب، في اتخاذ الخليلات. أما الإسلام الحنيف فيريد مجتمعاً نقياً طاهراً، ليس فيه فاحشة، فأيّ الطريقين أعفّ للمرأة، وأكرم للرجل، وأنزه للمجتمع؟! وأي المنهجين أولى بحملات التنديد، والاستنكار؟

إن كل زواج يقع معناه استنقاذ امرأة من التسكع، والضياع، وفي هذا ما فيه من حصانة الرجل، ووقار المجتمع. ومع ذلك لا يرضون إلا

بالتنديد بالإسلام، كأنهم يرضون لها أن تكون خليلة بدلاً من أن تكون حليلة، وهذا منتهى فساد الرأي، وسوء التقدير لقيم الحياة.

وشريعة الإسلام في نظام الزواج بهذه المثابة، شريعة تامة تحيط بجميع حالاته، وعلى أتمّها في الجانب الذي يتناوله أشد النقد من قبل المخالفين للإسلام عامة، أو المخالفين فيه لنظام إباحة تعدد الزوجات.

فالإسلام لم ينشئ تعدد الزوجات، ولم يوجبه، ولم يستحسنه، ولكنه أباحه في حالات يشترط فيها العدل، والكفاية.

فليس النص على إباحة تعدد الزوجات؛ لأنه واجب على الرجل، أو مستحسن مطلوب، وإنما النص فيه لاحتمال ضرورته في حالة من الحالات. ويكفي أن تدعو إليه الضرورة في حالة بين ألف حالة، لتقضي الشريعة بما يتبع في هذه الحالة، ولا تتركها غفلاً من النص الصريح.

وما تزال هذه الأصوات ترتفع بين الحين والحين.. غافلة عن أن هذه المشكلات التي يهوِّلون من أمرها ـ لم تنشأ عن نظام تعدد الزوجات في حد ذاته ـ وإنما نشأت عن سوء تطبيقه، وعن جهالة بعض الأفراد بمقاصد الشريعة السمحة.. ألا ترى أن الله أباح للإنسان أن يأكل ويشرب دون أن يتجاوز الحد، فإذا أسرف في الطعام والشراب بقدر ما هو راجع إلى النّهم، والإسراف. وعلاج مثل هذه الحالة لا يكون بمنعه من الأكل والشرب، وإنما يكون بتعليمه الأدب الذي ينبغي مراعاته اتقاء لما يحدث من ضرر النزوات الجامحة، استجابة لدعوات الفساد التي تستتر وراء اسم الحضارة والمدنية.. زيفاً وخداعاً.

فلو أن التربية الإسلامية الراشدة حققت أهدافها في نفوس الناشئين، وفي طبقات المجتمع كله.. لأقام كل مسلم من نفسه رقيباً على نفسه.. ولنظر إلى مصلحة المجتمع، وإلى كيان الأسرة، قبل أن ينظر إلى أوطاره، ولذَّاته.

ولو فقه كل مسلم معنى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣]، لأدرك بوضوح متى يجوز اللجوء إلى تعدد الزوجات، ومتى يحظر ذلك عليه شرعاً وتديّناً، ورعاية لكيان الأسرة، وأوضاع المجتمع.

إنه متى رأى أنه لا يستطيع الوفاء بتبعات الزواج الثاني، ولا يستطيع كفالة حاجات الأسرة الكثيرة الأفراد.. فإنه يدرك بوعيه الإيماني العميق أن التعدد في هذه الحالة يجني عليه.. كما يجني على الأسرة، والمجتمع.

وحينئذٍ يصرف نظره عن هذا السبيل.. حتى يجعل الله له مخرجاً.. ولا ينبغي له حينئذٍ ـ وهو يدرك الوسائل المادية المحدودة له طبقاً لدخله المعتاد، وظروفه الواقعة ـ أن يجازف بتعدد الزوجات لمجرد الاعتماد على الاعتقاد بأن الرزق بيد الله، وأنه ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها.

حقاً إن كان مؤمن يعتقد اعتقاداً يقينياً، لا ريب فيه، أن الله سبحانه هو الرزاق ذو القوة المتين، ولكنه ﷻ أمر الذين لا يقدرون على تبعات الزواج بالاستعفاف حتى يرزقهم الله من فضله، وحتى يتيسر لهم من وسائل العمل والكسب ما يحملون به أعباء الزوجة والولد.

قال تبارك وتعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣].

وفي الحديث الشريف يقول الرسول الكريم ﷺ:

«كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول!».

هذا ما نضعه أمام كل مسلم يتجه إلى تعدد الزوجات.. نذكره بهذه الحقائق الإسلامية التي وردت في الكتاب والسُّنَّة، ليتّقي الله في أُسرته ومجتمعه، فلا يحمل نفسه ما لا يطيق، ولا يلقي بأولاده في

مهاوي الضياع والحرمان، حتى لا يكثر في المجتمع عدد المحتاجين إلى العون، والمساعدة.

أما المسلم القادر على أعباء التعدد المالية، العازم على العدل، فأيّ ضير في تعديده للزوجات في الحدود التي أباحها الله سبحانه ما دام يشعر بحاجته إلى ذلك؛ لئلا يقع في مهاوي الرذيلة التي وقع فيها الغربي، والذي أباح التعدد المستتر لنفسه.

لا ضير هنا، ولا خطر، فما دمنا نضمن كفالة النشء، وتماسك الأسرة، وعدم شقاء المجتمع بمزيد من الأطفال التعساء.. فهنا لا مجال للاعتراض على من يطيق أعباء هذه الحياة، ولا مجال لقسره، وإكراهه على نظام الزوجة الواحدة.

فالثابت في أوضاع المجتمعات المادية المعاصرة أنها تبيح من الخليلات غير الشرعيات.. أضعاف ما يبيحه الإسلام في نطاق تعدد الزوجات.

وحسبنا أن نطمئن على مصير الأجيال الجديدة، وعلى كفالة حقوق الزوجة نفسها.. وهذا ما وجه الإسلام المسلمين إليه.. في قوله سبحانه: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ [النساء: ٣]؛ أي: أقرب ألا تظلموا. فقد تضمن هذا النص عاملاً اقتصادياً تجب مراعاته في تقدير ظروف من يريد أن يتزوج بأكثر من واحدة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾. قال الفخر الرازي وغيره في ذلك: «ذلك أدنى ألا تفتقروا، يقال: رجل عائل؛ أي: فقير، وذلك أنه إذا قلَّ عياله قلت نفقاته، وإذا قلت نفقاته لم يفتقر». فالمعنى على هذا القول أن الاكتفاء بواحدة، أو ما ملكت اليمين يجنب الإنسان الفقر، كما يجنبه الجور بين النساء.. ونقل عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه قال: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾؛ معناه: أدنى ألا تكثر عيالكم.

وقد أورد المفسرون في معنى هذه الآية قولاً آخر له اعتباره، ففسروا ﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾ بأن معناه: ألا تميلوا ولا تجوروا، يقال: عال الرجل يعول: إذا مال وجار.

واضح أن النص معناه: فإن خفتم أن تظلموا، فاكتفوا بزوجة واحدة.. والظلم بإجماع المسلمين محرم، حرمه الله تعالى على نفسه، وجعله بين عباده محرماً، وهو تعالى يقول في الحديث القدسي: «**يا عبادي، إني حرَّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا**». رواه مسلم، والترمذي، وابن ماجه.

فالزواج بأكثر من واحدة محظور بهذه الآية إذا علم المرء ـ بل إذا ظهر ـ أن ستغلبه دواعي الظلم.

فإذا خاف الجور، وعدم الوفاء بما عليه من تبعات، حرم عليه أن يتزوج بأكثر من واحدة. فإن خاف الرجل الجور، وعدم الوفاء بحق ثلاث منهن دون الرابعة حرم عليه العقد عليها.. فإن قدر على الوفاء بحق اثنتين دون الثالثة حرم عليه العقد عليها. وكذلك من خاف الجور بزواج الثانية حرمت عليه، بل إذا خاف الجور عن عجزه عن القيام بحق المرأة الواحدة حرم عليه أن يتزوج حتى تتحقق القدرة على الزواج.

فالمحظور كله: وقوع الظلم.. سواء كان ظلماً لزوجة.. أو ظلماً لطفل جديد يلقي به أبوه في متاهات الضياع والشقاء، ولا يوفر له شيئاً من أسباب الرعاية والحياة الكريمة؛ التي ينبغي أن تتوافر للنشء الجديد في مجتمع الإسلام.

ومن هنا نرى أن حل هذه المشكلة بكل مضاعفاتها الواقعة في كثير من أنحاء المجتمع الإسلامي المعاصر.. إنما يكون بمزيد من التربية الإسلامية الراشدة العميقة الجذور في النفوس؛ التي تستهدف الإقناع، وتحويل الاتجاهات والرغائب من حال إلى حال.. فلا بد من تعميق

الشعور بمكانة الأسرة في المجتمع ـ كما يراها الإسلام ـ وببيان الدور الكبير الذي تقوم به الأسرة في تحقيق أهداف المجتمع.. وكذلك لا بدّ من توضيح نظرة الإسلام إلى الزواج نفسه واجباً اجتماعياً، إلى جانب كونه وفاء بالمطالب النفسية، والجسدية المشروعة.. حتى تتغير النظرة إلى الزواج في بعض المجتمعات وسيلة من وسائل تحقيق مطالب فردية هينة لا تنظر إلى مصلحة الأسرة والمجتمع.

لذلك لا بد من وجود مؤسسات اجتماعية تستعين بكل الوسائل العلمية، والنفسية لتوجيه الأفراد.. وتوضيح معالم الطريق أمامهم لمعرفة آثار تصرفاتهم في المدى البعيد.. وفي حياة الأجيال القادمة.

وبذلك نضمن ألا يقدم أحد على نظام تعدد الزوجات إلا وهو على بصيرة من أمره، وعلى وعي كامل بمسؤولياته، وتبعاته.. واستعداد كامل لإقامة الحق والعدل ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

أما ما يقترحه بعض من تناولوا تلك المشكلة من ضرورة حظر تعدد الزوجات إلا بإذن من القضاء.. فإنا لا نراه حلاً للمشكلة.. بل هو يزيدها تعقيداً.

ذلك لأن هناك من الدواعي لهذا التعدد ما يكون سراً، يجب ألا يطلع عليه المرءُ غيرَه.. أو ما لا يستطيع القاضي أن يقدره حق قدره.. ومن هنا يتجه الأفراد في حالة شعورهم بالعجز عن التصرف الشرعي.. إلى تصرفات غير شرعية، أو قد يعدلون عن الزواج المعلن المستوفي للضمانات من الإشهاد والإعلان، إلى زواج آخر سرِّي لا يوثقونه، ولا يعلنونه.. وهكذا تكون المفاسد أكثر من المزايا إن حاولنا أن نجعل تعدد الزوجات بإذن القاضي وحكمه.

لأن الإذن في هذه الرخصة الحكيمة قد صدر من الحق تبارك وتعالى في قوله سبحانه: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾

[النساء: ٣] وهو سبحانه الذي أمر عباده برعاية العدل، والحرص على توفير الضمانات التي تمنع الظلم: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

وهذا كله متروك لضمير المؤمن الحي، وإحساسه المرهف، فإن وجدنا عوجاً، أو انحرافاً من بعض الأفراد.. فالعلاج كما قلنا في بذل المزيد من الجهود في ميدان الدعوة، والإرشاد، والتوجيه، حتى يكون كل مسلم على بصيرة من أمره.

المشكلة الرابعة: تحديد النسل:

وهذا مشكلة اجتماعية أُخرى تتعلق بنظام الأسرة، تواجه المسلمين في عصرنا الحاضر.

فهناك دعوات في بعض الأقطار الإسلامية التي تعاني من ازدياد السكان زيادة ملحوظة إلى تنظيم الأسرة، وتحديد النسل، بمعنى العمل على خفض نسبة المواليد في هذا المجتمع. حذراً مما يسمونه بالانفجار السكاني الذي يهدد البشر بالجوع والفناء.. كما يقولون!

وتختلف الآراء حول تلك الدعوة، ففريق من العلماء المعاصرين يرى أن تحديد النسل بهذا المعنى حرام شرعاً. وآخرون يقدمون من الأدلة، والاجتهادات، ما يجعله مباحاً، بل واجباً في بعض الأحوال! فما وجه الحق والصواب في تلك القضية؟! وهل هي مشكلة حقاً تستدعي البحث عن حل ديني اجتماعي؟

والحق أن الناظر إلى جوانب هذه القضية يرى أن المشكلة محلولة تماماً لو نظر المسلمون إلى واقعهم بتكامل وشمول، كما وجههم الإسلام.

ففي بعض الأقطار الإسلامية التي عنيت عناية واضحة بالدعوة إلى تحديد النسل، أو تنظيم الأسرة، فزعاً من الزيادة السكانية المرتقبة، نرى أن هذه الأقطار لم تستغل مواردها الاقتصادية كاملة.. فما يزال فيها

مساحات شاسعة من الأراضي البور أو الصحراوية.. وما زالت فيها ثروات معدنية في حاجة إلى التنقيب عنها، واستغلالها، فلو أن المسلمين عمروا كل أراضيهم، وانتفعوا بكل خيراتهم الطبيعية التي وهبهم الله سبحانه إياها.. ثم لم يجدوا كفاية طبيعية لحاجاتهم، أو وفاء بمطالب العيش الكريم في مجتمعاتهم، لحق لهم حينئذٍ أن يبحثوا مشكلة تحديد النسل باعتبار أنها حل لمشكلاتهم الاقتصادية المعضلة.

أما أن تكون الكثرة الكاثرة من أراضيهم لم تعمّر بعد.. وخيراتهم وطاقاتهم لم تعط كل مواردها بعد.. وأما أن تكون بعض أقطارهم تشكو من قلة الأيدي العاملة، وتحتاج إلى مزيد من القوى البشرية. فهنا لا حقّ لهم في بحث موضوع تحديد النسل، في الوقت الذي لم يبلغ فيه عدد المسلمين في كل أقطار الدنيا اليوم ما يقرب من عدد أي كتلة أخرى من الكتل العالمية المعاصرة.

والحق أن النظرية الاقتصادية التي يبني عليها بعض الداعين إلى تحديد النسل، أو المحذرين من خطر الانفجار السكاني الرهيب.. هذه النظرية التي تزعم أن الموارد الطبيعية تنقص، بينما الأعداد البشرية تزيد، وهي التي تسمى بالندرة النسبية، هذه النظرية غير صحيحة في التصور القرآني الواضح.. بل هناك وفرة نسبية. ففي القرآن يقول الحق سبحانه:

﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠].

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى: ١ ـ ٤].

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٠ ـ ٣٣].

وغير ذلك من آيات كثيرة تتحدث عن الموارد الطبيعية المقدرة تقديراً حكيماً، والتي لا يمكن أن تهددها الكثرة البشرية، بشرط أن تكون هذه الكثرة عاملة منتجة، ونشيطة دائبة.

﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ﴾ [الملك: ١٥].

﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

ومن هنا يرى كثير من الباحثين المنصفين في الاقتصاد أن الأرض ما تزال بحاجة إلى قوى بشرية عاملة، وأن الموارد في باطن الأرض لم تكشف بعد عن كل كنوزها، وهذا هو التفسير الحق لقوله سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦]؛ أي: أنه سبحانه قد وهب عباده من القوى، وفتح أمامهم من مجالات السعي والكسب ما يكفيهم لو أنهم بذلوا جهدهم، واستغلوا طاقاتهم في مجالات العمل المنظم الهادف.

أما القعود والتواكل انتظاراً لهذا الرزق الذي ضمنه الله سبحانه لكل دابة.. فلا يتفق مع الفهم المشرق لحقيقة الإسلام، كما طبقها المسلمون في أجيالهم الواعية.

والذي ندعو إليه، هنا، أن يقوم علماء الاقتصاد والاجتماع في البلدان الإسلامية بدراسة أبعاد مشكلة السكان في بعض الأقطار الإسلامية؛ التي تشكو من زيادة أعدادهم.. وكذلك مشكلة الأيدي العاملة في البلاد الأخرى التي تشكو نقص الأيدي العاملة، حيث يتحقق علاج تلك المشكلة، دون جنوح إلى تقليل عدد المسلمين، في الوقت الذي ترتفع فيه دعوات غيرهم لزيادة السكان.

فاليهود، مثلاً، يدعون قومهم لزيادة أعدادهم، ويقدمون لذلك

الضمانات الاقتصادية؛ لأنهم يريدون ازدياد أعداد مقاتليهم، وصنّاعهم، وعمالهم، ليحققوا مآربهم غير المشروعة في انتهاب البلدان، واستغلال الثروات.

وكذلك نكصت دول غربية كثيرة عن دعوة تحديد النسل لما رأت لها من عواقب خطيرة على المدى البعيد، إذا تجاوزنا النظر القاصر الذي يبتغي حلاً عاجلاً لمشكلات حاضرة.. فعلى المدى البعيد تؤدي دعوة تحديد النسل إلى أن يصبح الشباب سلعة نادرة، فيختل التوازن بين الأجيال، ويصبح الشيوخ والمتقاعدون الكثرة الغالبة في المجتمع.. بينما يصبح الشباب أقل نسبة عددية في المجتمع؛ الذي يلتزم تحديد النسل، مثلاً، على مدار ثلاثين عاماً.. فخلال هذه المدة يتحول الشباب إلى شيوخ.. دون أن تتوازن نسبة الشباب الذي يخلفهم من بعد.. فتحدث الفجوة التي قد تؤدي إلى شلل المجتمع، وتخلفه.

وهذا ما قاست منه بعض الدول الغربية؛ التي كانت تحبّذ أولاً تحديد النسل، ثم تراجعت عنه، بل تحولت إلى الدعوة إلى زيادة النسل، كفرنسا، والسويد[1].

ولا نريد لمجتمعنا الإسلامي أن يكون قصير النظر في معالجته للمشكلات، ولا أن يعالج مشكلة بالوقوع في أخطر منها.. ولكن الذي نريد التنبيه إليه، هنا، أن هذه الأمة المسلمة مطالبة بأمرين:

١ ـ أن تكون لها الكثرة التي تحمي الحق، وتعمّر الأرض، وتحقق فيها رسالة الإسلام.

٢ ـ أن تكون هذه الكثرة قوية لا ضعيفة، عزيزة لا ذليلة، كريمة لا مهينة.. وإلا كانت غثاء كغثاء السيل، وهو ما حذّرنا منه النبي ﷺ في هذا الحديث الذي يعدّ من دلائل نبوّته ﷺ: «**يوشك أن تتداعى عليكم**

(١) يراجع كتاب تحديد النسل للأستاذ أبي الأعلى المودودي.

الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا: أَوَمن قلة نحن يا رسول الله؟ قال: **لا، والذي نفسي بيده.. إنكم يومئذٍ لكثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم، وليجعلن في قلوبكم الوهن**. قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: **حب الدنيا، وكراهية الموت**». صدق رسول الله.

وهذا ما تعانيه الأمة المسلمة اليوم..

هناك كثرة عددية.. وهناك ملايين تزحم الأقطار.. ولكن من أي نوع؟

هل هي كثرة فاقهة لدينها، مستمسكة بمنهاجه في الحياة؟

هل هي كثرة عزيزة في دنياها، كريمة على نفسها وعلى الناس؟

هل هل كثرة مؤثرة.. يقام لها وزن في هذا المعترك البشري الرهيب؟

أم هي ـ للأسف ـ كثرة يقع أكثرها فيما يسمونه بالدول النامية تعبيراً مهذباً مستعاراً للتخلف والضعف؟ حيث إذا أردنا أن نحصي نسبة الأميّة في العالم، وجدنا لها بين هذه الملايين التي تحسب على الإسلام مكاناً مكيناً. نعم.. الأمية، بين قوم علّموا الدنيا بالأمس كيف تقرأ وكيف تكتب.. والمرض.. في أمة، داوت بالأمس جراح البشرية، وعالجت أدواءها. والفقر.. بين قوم يقول كتابهم الكريم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ [البقرة: ٢٠١ ـ ٢٠٢].

ويقول: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وصفوة القول.. إن المطلوب اليوم: كثرة لها حسابها، ولها وزنها في معترك الحياة.

ومن هنا فلا بد من نظرة تنال كل العناية والتقدير، إلى الأجيال الجديدة في كل مجتمع إسلامي.

إنها المستقبل.. وإنها الأمانة التي لا بد من الحفاظ عليها، ضماناً لاستمرار هذه الأمة، واستقرارها.

وليس النسل في المجتمع الإسلامي مسألة فردية.. ولا عبئاً ينوء به الفرد وحده.

وإذا كانت الدول المادية توفر كل الضمانات لأجيالها الجديدة، فذلك عن إدراك منها للقيمة المادية التي تجنيها بعد من وراء هذه العناية.

أما الأمة المسلمة فإنها مطالبة ألا تلقي بأجيالها الجديدة في مهاوي الفقر، والجهل، والضعف.. ثم تفرح بأن المسلمين يبلغون اليوم ما يزيد عن سبعمئة مليون؛ لأن العبرة، كما أوضحنا، بالكيف لا بالكم، وأن غثاء السيل لا يعني شيئاً.

إن هذا الغثاء لا يمكن أن يكون الأمة الوسط التي خاطبها الحق سبحانه بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وبقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فلا بد من عمل منظم يقوم على أساس سليم، لتبلغ الأمة هذه الدرجة، وتسير على هذا النهج القويم.

وأما موضوع تعدد الزوجات، وتحديد النسل، فيحتاج إلى معالجة ذلك؛ لأن الذين ينادون بإلغاء قانون تعدد الزوجات، إنما يأتون منكراً من القول وزوراً، فذلك تشريع من تشريعات الله وحده سبحانه، ورخصة حكيمة أباحها لعباده، ويجب ألا يترك الحبل على غاربه؛ لكل من شاء أن يلغي ما شاء من حدود الله، أو يغيّر تشريعاً منه، وإنما نود أن نشير بكل وضوح واحتراس، أن مثل هذا القانون في حياة البشرية يجب أن لا يساء استعماله، وهو نفسه ليس مطلقاً، بل هو مقيد بظروف دقيقة،

وبحدود معروفة، لكن الذي حدث من سوء الفهم لتعاليم الإسلام هو الذي أدى إلى حدوث المشاكل التي نراها اليوم بين الطبقات الأكثر فقراً، والتي لا يقوى الزوج فيها على أن يعول زوجة واحدة دون أطفال، فتراه ينساق وراء شهواته، فيتزوج مثنى وثلاث ورباع، وهو لا يبالي في مدى تطبيق الأحكام الصحيحة لمثل هذا القانون، ويحدث من سوء رعايته لأبنائه أن يكثر النسل دون رعاية ولا تنظيم، وقد لا يجدون من ينفق عليهم، أو يطعمهم.

ونحن ندرك أبعاد المشاكل الاجتماعية التي تهدد هذه المجتمعات الإسلامية إذا ما نحن أهملنا إعادة النظر في مثل هذه الأمور، ولعله من الخطأ، وسوء التقدير أن نقول بإلغاء قانون تعدد الزوجات، وتحديد النسل، فالأمر ليس كذلك، الأمر يحتاج إلى دراسة وتوعية تجب على علمائنا والمثقفين فينا دينيّاً، وعلميّاً؛ وذلك حتى يدرسوا إمكانية تنظيم مثل هذه الأمور، وذلك كأن يشترك القاضي أو القائم في مساعدة مثل هؤلاء الناس على تنظيم أمورهم هذه، وذلك بإجبار كل من يريد أن يتزوج أكثر من واحدة بأن يحصل على إذن من هيئة معينة، يثبت أمامها أنه قادر على هذا الزواج، وكفؤ له؛ استناداً إلى قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

وكذلك الحال في موضوع تحديد النسل، حيث يدرس العلماء ظروف المسلمين في مثل هذه الأيام دراسة علمية على ضوء التعاليم الإسلامية، مع دراسة دقيقة لأحوال المجتمع الإسلامي لتحديد السياسة التي ينبغي اتباعها. كذلك في حالة الأمراض الصحية، أو الاجتماعية التي تقلق المجتمع الإسلامي المعاصر؛ الذي نريد له جميعاً أن يكون في المستوى الذي يباهي به الرسول بقية الأمم: «**تناكحوا تناسلوا، فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة**».

ترى ما الفئة التي سوف يباهي بها الرسول؟ وهل سوف يباهي بعدد

فحسب، أكان يقصد كمّاً أو كيفاً، ونحن لا نشك أبداً أن الرسول الكريم يريد أن يباهي بأمته. فهل يمكن لنا دراسة مثل هذه المواضيع دراسة علمية يحدونا فيها تقوى الله، وخشيته، وشعور بمسؤولية كبرى، نحو مجتمع نحس ونرى آفاته، وآلامه.

وهناك موضوع آخر في العلاقات العائلية، وهو مشكلة غلاء المهور. الشباب يشكون من غلاء المهور، وكذلك أولياء الأمور، وكأننا ندور في حلقة مفرغة، ففي الوقت الذي يشكو فيه الشباب من دفع مبلغ خمسة أو عشرة آلاف ريال أو تزيد، تشكو العائلة من الخسائر التي سوف تلحقها لتجهيز البنت، وتضع الملامة على الزوج الذي لم يدفع ما يكفي، وهو يلومهم لطلبهم إذا حصل وطلبوا ـ والعياذ بالله ـ وهكذا ينشأ عندنا الشباب بالآلاف، ألوف يكبرون، وألوف يتقدمون دون زواج، وألوف يرفضون أو يخفقون في زواجهم.

وتسير المسألة على هذا النحو دون أن يسأل الناس: لماذا؟ سؤال علمي، ثم يحاولون الإجابة عليه إجابة علمية أيضاً. ولو سألوا لوجدوا مجتمعنا مريضاً يحتاج إلى علاج، والعلاج لا يأتي إلا بعد فحص، وذلك بالنزول إلى المجتمع، ودراسته دراسة صحيحة، يأتي بعدها البلسم المناسب.

الجانب السياسي والعسكري

لا يخفى على أحد من المسلمين اليوم أن هذه الأمة يتربص بها الأعداء، ويقومون بتدبير المكائد لها منذ أجيال بعيدة.. فالصهيونية العدو الأكبر للعالم العربي خاصة، وللعالم الإسلامي عامة. ولا عجب أن استترت عداوات متعددة وراء العدو الذي فرض على الأمة الإسلامية مواجهته في عصرها الحاضر.

ولا نريد أن نرجع إلى صفحات الماضي البعيد لنسجل مواقف اليهود من الإسلام في عصر النبوة.. فمواقفهم من نبي الإسلام، ودعوة الإسلام واضحة في الأذهان. ونكتفي أن نشير هنا إلى قوله ﷻ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة: ٨٢].

وهذا تأكيد، ولا يحتاج بعده المسلم إلى إثبات، أو استدلال.

أما موقف الصهيونية العالمية من ديار الإسلام، وأمة الإسلام، فهذا ما نواجهه في عصرنا.. وما يجب أن نتأمل أبعاده الخطيرة، وننتبه إلى ما يمليه علينا من قوة، واستعداد، وحذر.

إن الصهيونية تعمل جاهدة على اقتلاع حصون المقاومة، والقضاء على عوامل الثبات في هذه الأمة المسلمة، حتى يسهل أمامها ما تريد.

فهي تبدأ بالتسلسل عن طريق الفكر، والعلم.. ثم تنتهي في ميدان الحرب، وساحة القتال.. ولا بد من مقاومتها في كل هذه الميادين.

ولم يعد خافياً على أحد أن غالبية الدعوات الهدامة، والنظريات المفسدة في ميادين الاقتصاد، والسياسة، والفكر، والاجتماع، إنما هي

ثمرة تخطيط شيوعي ماكر يريد أن يدفع بالإنسانية إلى هاوية الدمار.

وننقل هنا كلمة للأستاذ العقاد قال فيها:

«ولن تفهم المدارس الحديثة في أوربا ما لم تفهم هذه الحقيقة التي لا شك فيها.. وهي أن أصبعاً من الأصابع اليهودية كانت وراء كل دعوة تستخفّ بالقيم الأخلاقية، وترمي إلى هدم القواعد التي يقوم عليها مجتمع الإنسان في جميع الأزمان.

فاليهودي كارل ماركس وراء الشيوعية التي تهدم قواعد الأخلاق، والأديان.

واليهودي «دور كهايم» وراء علم الاجتماع الذي يلحق نظام الأسرة بالأوضاع المصطنعة، ويحاول أن يبطل آثارها في تطور الفضائل، والآداب.

واليهودي ـ أو نصف اليهودي ـ سارتر ـ وراء الوجودية التي نشأت معزّزة لكرامة الفرد، فجنح بها إلى حيوانية تصيب الفرد والجماعة بآفات القنوط، والانحلال.

وكل من يلقي نظرة على «بروتوكولات حكماء صهيون» البشعة التي تطل من كل حكمة منها روح الحقد على العالم كله ـ غير اليهود ـ والتي ترسم الخطط الشريرة لإلقاء الفوضى، ونشر اليأس والقنوط بين الأمميين ـ غير اليهود ـ حتى لا تجد الشعوب مفراً من الخضوع للقبضة الصهيونية الأثيمة.

جاء في البروتوكول العاشر: «.. حكمنا سيبدأ في اللحظة ذاتها حين يصرخ الناس الذين مزقتهم الخلافات، وتعذبوا تحت إفلاس حكامهم.. وهذا ما سيكون مدبّراً على أيدينا، فيصرخون هاتفين: «اخلعوهم وأعطونا حاكماً عالمياً واحداً يستطيع أن يوحدنا، ويمحق كل أسباب الخلاف.. حاكماً يستطيع أن يمنحنا السلام، والراحة».

ويمضي البروتوكول قائلاً:

«ولكنكم تعلمون علماً دقيقاً وافياً أنه لكي يصرخ الجمهور بمثل هذا الرجاء لا بد أن يستمر في كل البلاد اضطراب العلاقات القائمة بين الشعوب والحكومات، فتستمر العداوات، والحروب، والكراهية، والموت.. هذا مع الجوع، والفقر، ومع تفشي الأمراض، وكل ذلك سيمتد إلى حد ألا يرى الأمميون أي مخرج لهم من متاعبهم غير أن يلجؤوا إلى الاحتماء بأموالنا، وسلطتنا الكاملة».

هذا ما يبتغيه حكماء صهيون.. وهذا ما يسعى إليه رجالهم في كل ميدان.. ولا ينبغي أن نستهين بمثل هذه الأقوال.. فقد عرف عن هؤلاء الصهاينة أنهم يسعون لتحقيق أهدافهم المدمرة ببطء.. ولكنهم يسيرون سيراً حثيثاً لا يتوقف، ويحاولون الاقتراب من هذه الأهداف شيئاً فشيئاً.

وقصة غدرهم وانتهابهم لفلسطين العربية المسلمة قريبة غير بعيدة.. يراجع موقفهم الذليل حين وقف بعض زعمائهم أمام الخليفة العثماني السلطان عبد الحميد يستعطفونه؛ ليمنح اليهود جزءاً محدوداً من فلسطين.. وجاء في قول أحد زعمائهم للسلطان عبد الحميد: «إن رعاياكم اليهود يتمتعون بكل طمأنينة وامتنان، ولا توجد لهم أي شكاية، وكل ما هنالك أننا نسترحم منكم ولو قطعة أرض رمزية لتكون لهم مركزاً دينياً يحجون إليه في ظل دولتكم، وليقوموا فيه بالصلاة، والدعاء، والشكر لسدتكم العلية، ودوام حياة جلالتكم».

فأجابهم السلطان باقتضاب: «لا يمكننا أن نعمل أكثر مما عملناه حتى الآن. وأظنكما ـ يخاطب الزعيمين اليهوديين، وكان أحدهما هرتزل ـ تذكران ما كان يلقاه اليهود قبل لجوئهم إلى بلادنا من الحقارة، والذل، والاضطهاد في مختلف البلاد التي هاجروا منها!».

وتكلم هرتزل فقال: «هل لي أن أتقدم بعرض على جلالتكم بأن

تقدروا وتحددوا ما ستنسبونه من ثمن للأراضي التي تعود ملكيتها إلى جلالتكم في فلسطين، شرط أن يدفع اليهود بدلها نقداً مع الزيادة مهما بلغ وارتفع الثمن من ملايين الليرات الذهبية».

وهنا.. غلا الدم في عروق السلطان، وصاح بالمندوبين اليهوديين:

«هل وصل بكما الأمر لتعرضا عليّ ثمناً لقطعة أرض عزيزة من أرض الوطن المبذولة فيها دماء الشهداء.. والتي لا تباع، ولا يمكن التفريط بشبر منها، بل نحن على استعداد لكي نبذل المزيد من الدماء للمحافظة عليها أكثر مما بذلنا الآن».

ونهض السلطان.. وانسحب هرتزل ولاوي يجران ذيول الخيبة، والانكسار[1].

تلك كانت بداية أطماع اليهود في فلسطين العربية المسلمة.. وبعد يأسهم من إغراء السلطان عبد الحميد بالمال، أو خديعته بالاستتار وراء غرض ديني.. بدأت خطط الهجوم والانقضاض، فكان المؤتمر الصهيوني الشهير في بازل بسويسرا عام (١٨٩٧م). وكان من بين مقرراته: الزحف اليهودي الفردي المتواصل إلى فلسطين للتمركز فيها، والسكنى في تلك البقاع المقدسة.

ثم كان سعي الصهيونية لخلع السلطان عبد الحميد، انتقاماً من وقفته الصلبة ضد أطماع اليهود في فلسطين، ولرفضه العرض الثاني الذي قدمه إليه اليهودي «قرة صو أفندي» ليمنح السلطان اليهودي المثلث القائم بين يافا وغزة والبحر الميت، مقابل أن يدفع اليهود للخزينة العثمانية مبلغ خمسة ملايين ليرة ذهبية.

وشن اليهود حربهم ضد الخلافة العثمانية.. حتى سقطت.. وكان

---

(١) محمد الفرجاني، الحرب الصليبية الأوربية التاسعة، بيروت، ١٣٩٣هـ، ص١١٣ ـ ١١٤.

من الأدلة البارزة على دور اليهود في إسقاطها، أن الوفد الذي جاء يبلغ السلطان عبد الحميد بقرار خلعه كان من بين أفراده اليهودي «قره صو أفندي».. وحين رآه السلطان عبد الحميد انتفض، وأشار إليه متسائلاً:

«ما عمل هذا اليهودي في مقام الخلافة؟!».

«ثم التفت إلى بقية الوفد وصاح بهم: بأي قصد أتيتم بهذا اليهودي إلى هنا.. أنا أفهم حقكم كمسلمين.. ولكن.. ما علاقة هذا اليهودي بالذي جئتم من أجله؟»[1].

نعم.. ما علاقة هذا اليهودي بهذا الحادث الكبير.. لولا أنه جاء متشفياً يحس بنشوة عارمة.. نشوة الانتقام من رجل وقف في وجه مطامع الصهيونية في فلسطين.

* * *

نشير إلى هذه اللمحات التاريخية ليراجع المسلمون تاريخهم المعاصر بوعي، وتدبر.. وليدركوا ماذا تريد الصهيونية بهم.. ليعلموا مدى إصرارها على تحقيق أهدافها التوسعية، طالما وجدت من المسلمين غفلة، أو تغافلاً.

إن الأمر جدّ لا هزل.. وليست فلسطين وحدها هي هدف العدوان الصهيوني، وإنما كل بلاد العروبة والإسلام أهداف لها.. مرحلة بعد مرحلة.. فما لم يقف المسلمون متحدين، متمسكين بعقيدتهم الصادقة أولاً.. ومعدين لما استطاعوا من قوة بعد ذلك.. وما لم يبذل كل مسلم ما يستطيع من جهد، أو مال، أو نفس.. فإن مطامع الصهيونية لن تقف عند حد.

وإذا كانت الصهيونية تحلم بحكم العالم كله.. فلا غرابة في أن

---

(١) تراجع النصوص الكاملة في: الحرب الصليبية التاسعة.

تحلم أولاً بالاستيلاء على بلاد العروبة والإسلام.. وقد كان «ديان» يقول قبل حرب رمضان من عام (١٣٩٣هـ) أننا نسير نحو بابل، ويثرب!

وقال في حرب الخامس من حزيران سنة (١٩٦٧م) «الآن فتحت الطريق إلى خيبر».

وهنا نشير بإيجاز إلى حرب رمضان المبارك، وبوادر النصر التي لاحت في الأفق، حين بدأ الإنسان العربي يتلمس طريق النصر من الله، لتكون هذه الحرب، مثلاً، فحسب لما نريده لأمتنا المسلمة من يقظة، وصدق في ساحة الجهاد.

إنها المرة الأولى.. منذ جولات عديدة مع الصهيونية.. في عصرنا الحاضر.. يشفي المسلمون بعض ما في صدورهم نحو هذا العدو الأثيم.. وإنما اختلفت نتيجة هذه الجولة عن نتائج الجولات السابقة في حروب عام (١٩٤٨م، ١٩٥٦م، ١٩٦٧م)؛ لأنها جولة متميزة، وقف فيها المسلمون تحت لواء عقيدتهم السمحة، وانطلقوا من روح الجهاد الإسلامي، الصدق الذي يغسل عنهم عار الذل، ويزودهم بطاقة الفداء.. لقد انطلق فيها التكبير من حناجر الجنود تعبيراً عما في القلوب من احتماء بقوة الله، ولجوء إلى حماه.. مع الصبر في الجهاد.. ومن قبله حسن الاستعداد.

ولئن كانت الصهيونية الباغية تحاول أن تشوه من نتائج هذه الجولة، وتحاول تصويرها على أنها أيضاً دليل على قوة الصهيونية، وضعف العرب، فإنها تفعل ذلك بروح المكابرة، والعناد، ومحاولة رفع القوى المعنوية المنهارة في قلوب الصهيونية من جرّاء الضربة التي تلقوها من حيث لم يحتسبوا.

ولكن الطريق ما زال طويلاً أمام هذه الأمة.. ولا ينبغي لها أن

تهمل مواصلة الاستعداد، ولا أن تغفل عن أطماع اليهود، الذين يلجؤون إلى التظاهر بالسلام حين تعييهم حيل الحرب.. وهدنتهم دائماً على خديعة، وقلوبهم دائماً منطوية على إحن..وصدق الله العظيم: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

ومن هنا نقولها كلمة صادقة صريحة: أن ليس أمام المسلمين إلا الجهاد، ثم الجهاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨]، حتى تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، فالجهاد هو طريق الخلاص،جهاد النفس بردها إلى الله حتى تعيش لله، وتموت في سبيل الله.

ومن هنا فقد كان جهاد النفس مقدماً على جهاد العدو في الخارج، وأصلاً له، وقد سار الإسلام في تربية النفس على الجهاد، فردها بالتوحيد إلى الفطرة السليمة، وحررها من العبودية لغير الله، ومن الذل، والخوف، والخضوع لسواه، فاستمدت منه القوة، والعون، والتأييد، فتكفل لها رب العزة سبحانه بالنصر، والتمكين في الحياة الدنيا، ونعيم الجنة الخالد في الحياة الأخرى[1].

فالحق أقول: إن الخطوة الأولى التي يجب أن تخطوها الأمة الإسلامية، حكاماً وشعوباً، هي مجاهدة النفس، بتخليصها من الأهواء والشهوات، واتجاهها إلى الحق في ذاته، وإلى الواجب في ذاته، لا حباً في شهرة، ولا رغبة في متعة، ولا رجاء في شأن من شؤون الدنيا، حتى يكون هوى الجميع تبعاً لما جاء به النبي ﷺ، وأمر الله تعالى به.

---

(١) د. كامل سلامة الدقس، آيات الجهاد في القرآن الكريم ص٣٤. وانظر تفصيل ذلك في الفصل الأول (أنواع الجهاد من ص١٩ ـ ٧٢).

وقد تطلب تكوين هذه الجماعة الأولى الكثير من العنت، والمشقة، حيث استغرق ثلاثة عشر عاماً من عمر الدعوة الإسلامية؛ أي: أكثر من نصف عمرها، ذلك لأن النفوس التي انحرفت وغلبتها الرذيلة، وسارت على الهوى، لا تستطيع أن تواجه العدو، ولا أن تصارع المعتدين. وقد ربى رسول الله ﷺ المسلمين على مائدة القرآن. ودون العودة إلى كتاب ربنا نتدبر آياته، ونعمل بأحكامه، فلن تقوم لنا قائمة، فلا طريق إلا طريق الله الذي سار عليه رسول الله والذين آمنوا معه، ففتحوا في ثمانين سنة أكثر مما فتح الرومان في ثمانمئة سنة، وكان نابليون يقول: إن العرب فتحوا نصف الدنيا في نصف قرن.

وقد أدرك هذه الحقيقة الكثير من المستشرقين والمبشرين، فهذا المستشرق الأمريكي Lothrop Stoddard (حاضر العالم الإسلامي ص٢٧) يقول: إن الإسلام لم ينتشر إلا بالقرآن، وعمارة الصدور به، إلى أن بلغ قراؤه من القوة المعنوية التي مكنتهم من نواصي الأمم، وهذه القوة المعنوية هي الأصل، والذي دونها لا تنهض أمة. وما القوة المادية مهما رقت أو غلظت إلا تبعاً لها، وهي بالنسبة لها كالبدن بالنسبة للروح.

المتتبع لتاريخنا الإسلامي الطويل يجد أن النصر حليفنا ما تمسكنا بحبل الله المتين وكتابه الكريم، والهزيمة والخذلان ما فرطنا في مصدر هذه القوة الحقيقية.

فهل من عودة إلى كتاب الله علماً وعملاً حتى يعود إلينا النصر، والعزة، والكرامة، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]؟!.

هذه نقط رغبت في الإشارة إليها إشارة سريعة، والتذكير بها.

* * *

وبعد، فخلاصة القول: إن الواجب يحتم علينا العمل على إعادة بناء هذه الأمة الإسلامية الكريمة إلى مسارها الصحيح، وأن نتنبه إلى الهوة العميقة بين حقيقة الإسلام نظاماً كاملاً للحياة، وبين واقع المسلمين اليوم.

ولعل أهم المنطلقات التي أراها هي تلك المؤتمرات الإسلامية الفعالة، وقد بدأ بعضها يدل على بوادر النهضة، وأبعاد الاهتمام الكبير بواقع الأمة الإسلامية، غير أنه من المهم جداً أن تكون أهداف المؤتمرات الإسلامية واضحة تمام الوضوح في أذهاننا، ونتائج هذه المؤتمرات محل اهتمامنا، وأن تؤخذ مأخذاً جاداً، يكفل اتخاذ خطوات فعالة في سبيل وضع توصياتها موضع التنفيذ، ولا بد من اتخاذ خطوات فعالة تهيب بالشباب، وتخطط للنهضة، وتعمل عملاً صادقاً يستهدف الخير لهذه الأمة الإسلامية، كما يجب ألا يكون الهدف الأساسي هو التألم على ما وصلت إليه الأمة من تأخر في المجالات الاقتصادية والمادية البحتة فقط، فإن تركيزنا على ذلك، قد يقودنا مع مرور الزمن إلى نهضة اقتصادية، أو نهضة مادية. ولكنها بعيدة كل البعد عن روح الإسلام نظاماً متكاملاً للحياة، وبذلك نبتعد عن طبيعة الوضع الذي اختاره لنا الله ﷻ، حيث أراد سبحانه أن يجعلنا خير أمة أُخرجت للناس، وسوف يكون فعالية هذه المؤتمرات أنها تترك الأثر الطيب في نفوس الشباب، وكلما كانت هذه المؤتمرات جادة عاملة ذات نتائج إيجابية كسبنا أموراً مهمة، منها:

أولاً: ثقة المسلمين في جدية هذه اللقاءات برؤية وتحسس آثارها، حملاً على منهج، وتطبيقاً لسلوك.

ثانياً: تشجيع كثير من مفكري الإسلام على الاشتراك في اللقاءات الإسلامية الجادة، عندما يدركون أنها لم تعد مجرد ندب حظ، وبكاء على فائت، ولا عظامية لمجد، كما كان في الماضي، ما جعل أمثال

هؤلاء المفكرين ينقطعون عن هذه اللقاءات لعدم ثقتهم في جديتها، وفعاليتها. أما إذا أعطيناهم المثل على جدية الشباب الذي يخطط لمثل هذه المؤتمرات، وعلى نظرته الواسعة إلى أبعاد مستقبل كريم للأمة الإسلامية، فإننا سنكسب ثقة هؤلاء الشباب، وسيشتركون في مؤتمراتنا عوامل فعالة في سبيل نهضة هذه الأمة، إن شاء الله.

ثالثاً: إن جدية المؤتمرات الإسلامية ردع لخصوم الإسلام، يدفعهم إلى أن يدركوا أن حركة الفكر الإسلامي لم تعد فكراً، مجرداً وفلسفات جوفاء، وجعجعة لا طحن خلفها، بل أصبحت سلوكاً وتطبيقاً عملياً، وفي ذلك ما يبعث اليأس في نفوسهم من النيل من الإسلام والمسلمين؛ لأنهم عندما يرون يقظة الإسلام يستشعرون هيبة الفتح الإسلامي، ورهبة معارك الحق، وأبعاد نصر مؤكد من الله تعالى لمن ينصرون رسالته.

رابعاً: كما أن في جدية هذه المؤتمرات أيضاً الفرصة الكبرى لإعطاء الشباب المسلم فكرة واضحة عن صلاحية دينهم نظاماً كاملاً للحياة، وعاملاً للنهوض بحياة الأمة كلها، وبذلك لا يفتنون بالمبادئ المستوردة، أو المذاهب الهدَّامة؛ لأنهم سيجدون في هذه اللقاءات ما يشفي غليلهم، وهنا تأتي أهمية فتح باب الحوار الحر مع الشباب المسلم، وإتاحة الفرصة له ليناقش، ويتعلم.

وأنه مما يبعث على السعادة أن كثيراً من توصيات المؤتمرات الإسلامية التي عقدت في العالم الإسلامي، أصبحت تؤخذ بعين الاعتبار في بعض البلاد الإسلامية، ما جعل بعض المناهج التعليمية يطرأ عليها تغيير وتبديل، ومحاولة لجمع المفكرين الإسلاميين في سبيل النهوض بالأنظمة التعليمية.

وإن لنا أملاً كبيراً، إن شاء الله، في هذا الشباب المسلم المتوقد،

المتحفز في العالم الإسلامي، ولنا أمل أكبر في أُولئك المفكرين الإسلاميين الذين يعملون في صمت، وصدق، وصبر، وإيمان، ولنا، أولاً وأخيراً، كل الأمل في نصر الله ﷻ وتأييده، إنه على كل شيء قدير، وهو سبحانه نعم المولى، ونعم النصير.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
تقديم	٧
المعادلة الحرجة في حياة الأمة الإسلامية	٩
الغزو الفكري	٢٢
الإسلام والفكر حول الإسلام	٤٠
مناهج التعليم	٤٧
الجانب الاعتقادي	٥٠
الجانب الاقتصادي	٦١
الجانب الاجتماعي	٦٩
الجانب السياسي والفكري	٨٩